حلم عابر

مؤمنة محمود

دار بيوند للنشر والتوزيع

obeikan.com

دار بيوند للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

الكتاب: حلم عابر

المؤلف: مؤمنة محمود

تصنيف الكتاب: رواية

تصميم الغلاف: يوسف عز الدين

المقاس: 20*14

رقم الإيداع: 2017/3745

رئيس مجلس الإدارة

محمد عزالدين

المدير العام

صبرينة غلمي

All Rights Reserved

Beyond for Publishing and Distribution

+2 01095600007

beyond.dbh@gmail.com

www.facebook.com/beyond.PDH

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الإهداء:

إلى تلك الأمية التي لا تفقه من القراءة والكتابة شيئاً وكان لها الفضل الأكبر في تعليمي وتشجيعي لأبدأ أول أعمالي.

لأمي المربية الفاضلة أهديها أول رواياتي

obeikan.com

(لا يكف المرء عن الحلم حين

يصبح عجوزا بل يصبح عجوزا حين يكف عن الحلم)

غابرييل غارسيا ماركيز

obeikan.com

شكراً:

لذلك الشخص الذي لولا خذلانه وخيباته المتلاحقة ما كنت عدت للكتابة من جديد بعد انقطاع دام لأكثر من ست سنوات

obeikan.com

بعض الخيبات تجعلنا أقوى

obeikan.com

لا تحاول البحث عن حلم خذلك ...

ولكن حاول أن تجعل من الانكسار

بداية حلم جديد

obeikan.com

احلم كما تشاء.. بما تشاء.. وكيفما تشاء..

نم كثيرا لتكثر أحلامك... ولكن... إياك ثم إياك أن تستيقظ دون أن تنهي ولو جزء صغير من حلمك..

وعند استيقاظك أغمض عينيك مجددا لتجدد الأحلام

obeikan.com

عاودها ذلك الحلم للمرة الثالثة على التوالي .استيقظت هذه المرة فزعة على غير عادتها. كان ظلام الليل يلف المكان حولها، وبرودة يناير كانت تخترق عظامها الرقيقة، ارتشفت قليلا من كأس الماء المتواجد على طاولتها بجانب السرير الخشبي.

وبعد ساعات وهي جالسة تتأمل حلمها في ذهنها، لاحظت بزوغ شمس الصباح.. نهضت من سريرها لتتأمل شروق الشمس من تلك النافذة الصغيرة، واتكأت على حافتها... لتمسح تلك الدمعة اليتيمة التي انسكبت على خدها..

إلى متى سيبقى هذا الحلم يراودها، وكلما حاولت أن تنساه يطل عليها بحلم جديد، وكلما حاولت النوم لتهرب من الواقع الذي فرض نفسه تلمح وقع أقدامه في أحلامها..

أحيانا تراه شهيا وكم تتمنى لو تبقى معه الليل بأكمله .. وأحيانا يجيئها ككابوس مفزع يسد شهيتها للنوم ويرحل.

نظرت إلى المفكرة على الطاولة فاليوم هو ذكرى طلاقها من زوجها أحمد .. استطاعت أن تصمد سنة كاملة دون أن تنهار..

جلست في سريرها لعلها تنام مجددا فيتراءى فارسها لها في حلم جديد... أغمضت عينيها لتتراءى أحلامها معه.. كان ذلك بعد انفصالها عن زوجها بشهر واحد. لتنام في تلك الليلة الباردة والمثلجة من ليالي يناير ..

شاب أسمر ذو ملامح خليجية، طويل وجذاب ، ذو لحية خفيفة وشارب قصير، شعره الأسود أضفاه جمالا على جمال، يرتدي ملابسه الخليجية البيضاء بنقاء وطهر. أمسك حينها بيديها الباردتين على عكس يديه الدافئتين، أمسكهما بحنو وشهامة رجل. نظر إلى عينيها العسليتين بشغف ظاهر. وكأن عينيه تحكي لها عهداً بالبقاء طوال العمر. سرت قشعريرة في جسدها من نظراته العطوفة الممتلئة بحب جميل. اجلسها بجانبه، ضمها إلى قلبه، قبلها من جبينه، لم يتحدث معها بتاتا، وكان في صمته كل الحكايات وأروعها، قلبه هو فقط من كسر أروع لحظات الصمت ليمسك يدها من جديد وبطبع قبلة رقيقة على كف يدها... ويغادر إلى اللاشيء ...

أفاقت من ذاكرة حلمها بحزن يعتصر فؤادها. تتمناه وكأنه شخص ماثل أمامها، تريده هو بالذات ليكمل معها قصة بدأها هو، فهي لم تذق الحب يوما وهاهي تريده ليكون بطلا معها في قصة الحب هذه.

فزوجها أحمد والذي تزوجته منذ ثلاث سنين لم تحبه يوما وهو أيضا لم يذقها طعم الحب ، كانت له زوجة فقط تلبي احتياجات زوجها كواجب فرض عليها ليس أكثر، زواجها كان بالنسبة له مصلحة تجارية مقابل صفقة مالية، كانت بالنسبة له كأي أثاث في البيت اشتراه، وكان بالنسبة لها زوجها الذي اشتراها بثمن بخس، فلم تتحمل إهاناته المتلاحقة بحقها لتهرب منه بعد أن هرب هو منها إلى أخريات كثيرات. وهي الجارية في منزلها التي يجب ألا تبرحه لأنها أنثى . والأنثى موصومة بالعار وتجلب العار إلى أهلها إن قررت أو فكرت مجرد تفكير بالطلاق.

استطاعت الهرب إلى بيت أختها هبا للعيش معها ونجحت برفع دعوى التفريق وربحتها بسهولة بعد أن تخلت عن مهرها كاملا مما أغضب والدها وهو الذي كان يراهن على هذا المهر فهددها إن لم ترجع له سيبيعها لأول خاطب يضع فيها سعرا باهظاً.

فغدت أسيرة شاب مجهول الهوية، ظهر من العدم ليروي ظمأها للحب، وليرويها من الكأس الذي حرمت منه سنين، حتى لو كان حلما، فبعض الأحلام أروع بكثير من واقع لا يجلب لنا سوى الآلام.

أفاقت من شرودها على صوت أختها هبة تناديها لتفطرا سوية مع زوجها أيضا، نهضت متململة وسارت ببطء شديد فغسلت وجهها من

تجاعيد الأيام. وجلست بمحاذاة أختها على المائدة دون أن تنبس ببنت شفة، بدأت بالأكل لكن بدون شهية ، فهي منذ فترة تأكل كفاف يومها فقط، فلم يعد يهمها ذبول جسدها وهي التي كانت كالبرعم المتفتح الراقص في وهج الشمس.

انتهت من طعامها بسرعة وعادت إلى غرفتها كما دخلتها فهي ترفض الجلوس مع زوج أختها مصطفى الذي كل مرة يحضر لها عريسا غريبا عجيبا وكأنه متواطئ مع والدها لنحرها من جديد.

كانت هبة وزوجها يعتقدان أن سبب ذبول منى هو انفصالها عن زوجها أحمد. فهي مازالت في العشرين من عمرها وبحاجة إلى شاب تأوي إليه في آخر الليل. ولم يدركا أن هناك سبباً آخر وشاباً جذاباً يقف في منتصف حياتها ليوصد قلبها جيداً من بعده. فهي لا تريد من الرجال شيء سوى تركها لوحدها تندب حبا لم يولد بالأصل.. حباً ولد في الأحلام.

نظرت هبة إلى زوجها مصطفى وقالت:

- ما خطب منى كل يوم تزداد سوءا وكأنها في معركة مع الموت.

- أنا أعتقد بأنها مازالت تعاني من حبها لأحمد فهو وإن لم يكن كما تريد يبقى سندها وزوجها وعاشا سنتين مع بعضهما البعض.
- لا ياعزيزي، أنا أخالفك الرأي تماما، فمنى لم تشعر أنها زوجة لأحمد ولو ليوم واحد. فهو إما مع بنات الهوى في الليل وإما في عمله صباحا، فأنى لها أن تشعر بحب رجل كهذا لم تنطبق عليه مواصفات الرجولة أبدا.
- إذا مارأيك بتزويجها للشخص المناسب، هي بحاجة إلى رجل تبثه همومها. وتبكي في أحضانه. رجلا يشعرها بأنها ماتزال أنثى.

حينها ضحكت هبا بملء فيها وتفرست في زوجها قائلة:

- أخبرني ياعزيزي عن هذا الرجل الذي به تلك المواصفات الدقيقة الذي سيبحث عن إمرأة مطلقة، ألا تعلم بأن الرجال في عصرنا يبحثون عن الفتيات الصغيرات، وإن كان كما قلت سيكون إما مطلق وعمره تجاوز الأربعين، أو متزوج ويبحث عن المتعة الجسدية بعيداً عن زوجته، وحينما تعلم زوجته سيطلق الثانية خوفاً من خسرانها وحفاظاً على بيته.

- أوافقك الرأي .. لكن هناك من يريدها وطلبها من والدها وهو راض عن قصة طلاقها، فإن هي لم ترض بهذا وقررت أن تخرج من أسرها الذي أسرت نفسها به ستجد من يحبها ويريدها لذاتها هي.. ربما لم يكتب لها الحب في زواجها الأول ومقدر لها الحب في زواج آخر.. وأنا واثق ياحبيبتي أنه سيأتي هذا اليوم لتخبرك أنها عاشقة، وستصدقين كلامي.

ضحكت هبة من أعماق أعماقها وقالت بصوت هادئ

- وكم أتمنى رؤية هذا اليوم. فمنى قد تعبت في حياتها مع والدي، وزوجها أشقاها كثيراً، توقعت بفشل هذا الزواج قبل بدأه .. فما بني على باطل هو باطل.

ضحك زوجها وغادر إلى عمله مسرعا لأن الحديث أخذهم ونسي موعد عمله.

****

فتحت منى جهاز اللاب توب الخاص بها. تأملت حسابها الفيسبوكي قليلا، فعادت إليه بأفكارها دون قصد منها،وتذكرت حلمها الثاني معه..

في تلك الليلة من شهر ابريل الربيعي، حينها عاد إليها بوجه بشوش كالقمر وكأنه عائد من فرحٍ ما وقال لها بحنان لا مثيل له مضى على فراقنا ثلاث سنوات. وضمها إليه ، حملها حتى طارت في سماء أحلامه وارتفعت قدماها عن الأرض، قبلها من جبينها وأعادها إلى الأرض مرة أخرى.

لم تدري يومها سر الثلاث سنوات، هل عاد إليها بعد ثلاث سنوات؟ أم أن ليلتها استغرقت ثلاث سنوات؟

هذه المرة لم يكن صامتا كعادته، تكلم وأسمعها صوته الدافئ، تستطيع الآن تمييز صوته عن باقي الأصوات. كيف لا؟؟ وهو حبيبها .. أفاقت من شرودها وبدأت الكتابة على حائطها الفيسبوكي.

أين أنت يا نبضي؟

من أين ظهرت؟

وكيف ظهرت؟

ولما ظهرت؟

هل أنت ملاك؟

هل أنت جان؟

هل أنت بشر؟

بالله عليك أخبرني من أنت؟

ولماذا اخترت أحلامي للعبث بها؟

هل تراني في أحلامك كما أراك؟

وهل أحببتني كما أحببتك؟

أخبرني يا فارسي من تكون؟

ففي كل ليلة أتعطر وأرتدي أروع الثياب والحلي لأجلك وحدك.

فقط تعال إلي وستجد فندقا لقلبك.

وضغطت على زر النشر لتراها تزين صفحتها.

obeikan.com

حين دخلت عليها أختها بكأس من العصير، كانت قد انتهت للتو من تصفح حسابها، قالت لها هبا بهدوء مصطنع:

- لنتحدث قليلا
- أدري ما ستخبرينني به. حفظت أحاديثك جيداً، هل تريدين أن أعيدها على مسامعك؟
- لأنك لا تستمعين إلى أحد أبداً، إلى متى ستبقين على هذه الحالة أسيرة غرفتك؟ إلى متى ستبقين كذلك؟ ألم تلاحظين تلك الهالات السوداء والتي اجتاحت عيناك. أم ذبول وجهك ونحول جسدك.. ألم ترِ وجهك بالمرآة وكيف أصبحت؟
- وماذا أفعل؟ هل أرقص على جراحي طرباً لتبتسموا أنتم وتفرحوا، كيف أضحك وقلبي قد ذبح من الألم، هل تدرين عدد الطعنات التي قتلت قلبي وأدمته؟ هل تدركين حجم الألم الذي يعتصرني حين أتذكر ذلك اليوم الذي شهد زفافي أو جنازتي على ذلك الرجل المغرور، رأيت قبري حينها يحفر لي حين كنتم تزفون نعشي إليه، رأيتكم وأنتم كالسكارى تتراقصون على إيقاع الأغاني الشرقية، وكل واحدة منكم كانت ترقص على إيقاع جراحي أنا، كان قلبي

حينها ينزف ألماً، حينها فقط أحسست باليتم والوحدة، لم يكن معي أحد ليشاطرني عزائي.

- والآن حان دور سعادتك. حرري نفسك من هذا الأسر، لا تبقِ أسيرة هذه الغرفة، اسعدي نفسك بأي شيء، اخرجي واستمتعي بالصباح ونسماته العليلة وشمسه الدافئة، اقطفي الورود وقدمي لنفسك أجملها كهدية، ولا تنتظري من أحد أن يهديها لكِ.
- وهل سأجده إن أنا خرجت؟ هل سأجد حبي المفقود ؟ أم سأنال خيبة أخرى لأعود إلى سجني من جديد، حينها سأكبّل نفسي بالأصفاد لأمنع قلبي من خيبات أخرى متلاحقة.

لم تدري هبا عن ماذا تتحدث منى ، كل ظنها بأن منى تبحث عن حب جديد، يعيد إلى نفسها بريق عينيها.

- ستجدينه، صدقيني ، إن خرجتِ من الأسر ستعثرين عن ذلك الحب، فمازلتِ صغيرة، والأيام ستثبت لك صحة كلامي، الربيع بانتظارك، فهو لا يهدينا إلا الفرح، افرحي في حياتك القادمة لتسعدي.

احتضنت هبا أختها بكل حب وقبّلتها من جبينها، ورحلت لتترك منى في حيرة من أمرها...

وقفت منى أمام مرآتها الكبيرة الشاهدة على جراحها، تأملت هالاتها السوداء كسواد الليل تحت جفنيها، نحول جسدها، وجهها الشاحب، شعرها الذي تخللته بضع شعيرات بيضاء وهي مازالت في العشرين من عمرها.

أغمضت عينيها بتلقائية لتتذكر الليلة الفائتة والتي جمعتهما سوياً، تحت فناء شجرة الزيزفون . كان لقاؤها الثالث معه.

أتاها وفي عينيه الشوق يتحدّث، أهداها وردة جورية صفراء من نور الشمس خلقت، قال لها ودمعة عينيه تختصر المشهد: أليست كافية الخمس سنوات، أما حان اللقاء.. قبلها من جبينها كعادته حين يزورها. وغاب كما جاء.

أفاقت على دمعة انسكبت من جحيم الذكريات، لا هو لها فيجيئها ولا هي له فترحل إليه. لا هو قريب ولا هو بعيد، ها هي تشتاقه حد الوجع وأكثر.

جلست القرفصاء، ووضعت رأسها في يديها لتنتحب وتشهق كما تشاء، لا تدري أين السبيل لوصاله، لا تدري إلى متى سيظل يطاردها في أحلامه، يأتي كما يرغب ويرحل كما يحلو له،

أين ستبحث عنه ودمشق ليست بمدينة صغيرة، ومن زيّه يبدو عليه بأنه من بلاد الخليج جاء،، وفي أحلامها حط رحاله، ليمارس الحب معها هي، هي وحدها فقط من يحق له العبث بأحلامها،

أسئلة كثيرة رقصت حول رأسها دون أن تعثر على أجوبتها..

مضى يومها كعادته الروتيني، مملٌ في كل شيء، أفكارها لا تبرح رأسها مصممة على النيل منها، مشوهة الإدراك أصبحت، تلك الأحلام طغت على حياتها حتى كبّلت ذهنها وجعلتها رهينة لفارس لم تره سوى في ثلاث لقاءات على مدار سنة كاملة.

كانت تأوي إلى سريرها، تتعطر وتتزين له، فربما جاء إليها دون موعد مسبق، فوحده فقط بطل أحلامها من يحق لها أن تتزين له. فأبطال الأحلام وحدهم من يستحقون الاعتناء بأجلنا لهم.. أكثر بكثير من أبطال الواقع.

لم يزره طيفها في الليل وحين استيقظت في الصباح كانت ملامحها تشي بالكآبة، ماذا تفعل إذا هي باتت تشتاق له كثيراً ..

نهضت من سريرها بتململ لتقف أمام مرآتها وتسرح شعرها المنسدل على كتفيها بغير رتابة، ابتسمت ابتسامة منكسرة وارتدت فستانها الوردي مصممة على أن تبدأ حياة جديدة، أو قصة حب جديدة بطلها فارس أحلامها المنتظر. قررت أن تخرج لتواجه العالم من جديد، ستبحث عن عمل فربما ستجده في زحمة الأيام، سيقف القدر في صفّها هذه المرة ويهديها له، ستبدأ هذه الحياة الجديدة، ستكون صعبة شيئاً ما، لكن بالنهاية ستصل إلى درب الحب الذي ابتدأ خيطه في حلم عابر.

تناولت فطورها مع أختها. ورأت هبة التغيير الذي طرأ على منى، ظناً منها أن حديثها معها البارحة جاء بنتائج إيجابية، لم تكن تعتقد أن هناك خلف الكواليس من يحرّك منى كدمية باربي، كسرت الصمت حين قالت لها:

- إلى أين أنتِ ذاهبة مبكراً هكذا.
- سأبحث عن عمل. قررت البدء من جديد.
- وفي أي المجالات قررت العمل.
- في المطاعم أو الفنادق، فربما ألتقي به.
- من تقصدين؟

قصّت منى على هبا روايات أحلامها الثلاث.. ضحكت هبا من سذاجة منى وقالت:

- أضغاث أحلام، لا تفكري بها على محمل الجد.
- ولكن الحلم تكرر أكثر من مرة، ربما سيغدو واقعاً غداً.
- ربما حاجتك للحب هي من رسمت في ذهنك هذه الأحلام. وهذا الشاب ربما رأيته ذات يوم ولو جزء من ثانية. فحفظه ذهنك في ذاكرتك. وأعاده إليك في هذه الأحلام.
- وما أدراك أنت؟ ربما يكون هو أيضا يراني الآن في أحلامه.

رحلت منى بعد أن قبّلت أختها من جبينها قبل أن تكمل حديثها لأنها تعرف أختها تمام المعرفة فهي كأبويها واقعية جداً. ولا تثق بالأحلام.

سارت بين الحقول قليلاً قبل أن تركب الحافلة البيضاء التي دائماً ما تقف في ذات المكان بانتظار أن تمتلئ بالركاب. جلست أمام النافذة ووضعت سماعات الهاتف في أذنيها لتستمع إلى الأغاني الهادئة ورأسها على النافذة تشاهد الطريق وخيالها يسرح معه كيفما يشاء.

obeikan.com

حين وصلت الحافلة إلى دمشق، نزلت منها لتبدأ رحلة البحث عن عمل لها وبدأت ترتاد أول المطاعم الذي شاهدته أمامها. دخلته في دقائق وخرجت منه بعد أن أخبرها موظف الاستعلامات بأن لديهم موظفين ما يكفي لسد احتياجات المطعم.

لم تحزن فهذه البداية فقط.

دخلت إلى مطعم ثاني وثالث ورابع وخامس و..... الخ.

وكانت الإجابات كلها تأتيها بالرفض، تعبت قدماها من السير، وشعرت بإرهاق شديد، ولم تعد تقوى على متابعة السير، فعادت إلى منزلها تجر أذيال الخيبة ورائها.

ولكن ذلك لم يخب ظنها، ستعود غداً لتبحث مجدداً عن فرصٍ أخرى، لن تيأس أبداً.

دلفت إلى البيت وأخبرت أختها عمّا جرى لها، وفيما بعد دخلت إلى غرفتها قبل أن تستمع إلى فلسفة هبا التي باتت تكرهها، ربما لأنها تعرف أن هبة على حق. ولكنها ترفض قبول الواقع، فكيف لها أن ترفض دقات قلبها.

استرخت على سريرها تفكر وتسرح في ذهنها بعيداً، كم باتت ترهق نفسها في التفكير، فعقلها أضحى يعمل ليلاً ونهاراً دون كللٍ أو ملل، يتسلل إلى أحلامها ليوقظها ويتركها في حزنٍ وشوقٍ، غطّت في نومٍ عميق تاركة الحياة تعبث بها كيفما تشاء سواء في أحلامها أو واقعها.

عاد إليه هذه المرة بوجه مبتسم، عاد ليضمها إلى صدره بحنان عاشق، وهاهي ترتدي له فستان الزفاف الأبيض، ويراقصها على أنغام أغنية لماجدة الرومي (يسمعني حين يراقصني كلمات ليست كالكلمات)، وقلبها من فرط السعادة حطّ فوق الغيوم، كيف لا وهو ممسك بيديها الصغيرتين وبقبلة صادقة طبعها على خديها لتحمرّ وجنتيها خجلاً. فهمس في أذنها ــ أميرتي أنت ــ حملها ودار بها دورتين كاملتين، كانت في أحضانه كعصفورة بيضاء، وضعها على الأرض بخفة وحنان، أحاطت وجهه بكفيها لتستنجده ألا يرحل. ولكنه سبقها حين قبلها قبلة الوداع وغاب في اللاشيء. تركها بفستانها الأبيض كالثلج وبدمعة يتيمة تعتصر خدها ألماً.

أفاقت بعد ساعات لتجد الدمعة مازالت مستقرة في مكانها، مسحتها بغضب، إنها دمعة لئيمة عنيدة ترفض النزول.

هدأت قليلاً قبل أن تهب واقفة لتفتح دفتر الرسم وتشرع برسمه. نعم استطاعت أن تحفظ وجهه جيداً هذه المرة، بعد أربع محاولات فاشلة، وجدت نفسها تقترب منه أكثر وأكثر، في كل حلم يظهر لها شيء جديد، مما يجعلها تتعلق به أكثر فأكثر. نجحت في إنهاء الرسم ووضعته بجانب سريرها على الجدار المقابل لها لتراه كل ليلة قبل أن تنام. لم تجد للنوم سبيلاً كان قد جافاها ورحل إلى عوالم مجهولة، وكيف لا يجفاها؟ وهي كلما حاولت الهرب منه يأتيها بعاطفة جديدة، وحب جديد، بقيت هكذا إلى أن استمعت إلى أذان الفجر من ذلك المسجد البعيد الذي لا يصل صوته إليها إلّا في الفجر، توضأت وصلت وسجدت لله ودعت من أعماق أعماقها أن يجمعهما القدر ولا يفرقهما، ونامت على سجادتها من فرط ما بكت وابتهلت لله.

أفاقت في صباح يومها لتقف أمام مرآتها بابتسامة صغيرة، واثقة من القدر بأنه سيكون لها ما دعت لأجله.

في كل يوم كانت تبدأ رحلتها للبحث عن عمل، لم يعد يهمها المكان، كل همها كان أي شيء ينسيها هذا الفارس الذي اقتحم عالمها دون استئذان منها.

وكانت في المساء تعود إلى سجنها الصغير الذي بنت سوره بنفسها. تنام محتضنة خيبتها وجزءاً من ذاكرة مفقودة، وقليلاً من الخيبات. متأملة صورته المتوضعة على الجدار، تحتار في اسمه، وهل عليها أن تختار له اسم؟ أم يبقى هكذا فارسها المجهول. ومتى موعد زيارته القادمة؟.

مضت الأشهر ببطء شديد ورحلت تلك الشهور إلى المجهول، وجاء مارس بربيعه المتواضع ليشعل في فؤادها من جديد غابات من ذكريات محفورة في ذاكرتها.

لم تمل يوماً في البحث عن عملٍ لها. حتى استوقفها نهاراً مصطفى زوج هب ليسألها عن أحوالها فكانت إجاباتها كلها سلباً.

ابتسم لها وأعطاها رقم صديقٍ له منذ مدة ولديه فندق صغير في ضواحي دمشق، وأخبرها أن تتصل به حالاً. كان قبل يومٍ كلّمه بشأنها.

ابتسمت منى كثيراً واتسعت حدقتا عينيها بفرح بالغ أخيراً جاء الفرج لتباشر بتحقيق أول حلم لها ومن ثم ستبحث عنه. عن ذلك الطيف الخجول.

***

دلفت إلى بهو الفندق تتلفت حولها. ربما هي خائفة أو متوترة، ولكنها تحاول الحفاظ على هدوئها بما استطاعت من قوة، استقبلها موظف هناك وعلى فمه ابتسامة عريضة كانت كافية لتشجيعها على المضي قدماً.

أخبرته بموعدها مع مدير الفندق، رحّب بها وأدخلها إلى المدير مع بضع عبارات تشجيعية.

استقبلها المدبر استقبالاً حافلاً كرمة لمصطفى فهو من أعزّ أصدقاءه. وشرح لها طبيعة عملها. والساعات المتوجب عليها قضاؤها في العمل، وكانت هي توافقه الرأي في كل شيء بإيماءة من رأسها، طلب من الموظف نفسه الذي ادخلها أن يتولى مهمة تعليمها على عملها الجديد.

كانت وجوه الموظفين تبشر بكل خير مما جعلها أكثر ثقة بنفسها وأكثر سعادة.

انتهى دوامها خلال ساعات قصيرة من العمل، ستحاول من الغد البحث عن فارسها، أو ربما ستنتظر لعله يأتي إليها في هذا الفندق الفخم. فهذا الفندق يستقبل جميع الجنسيات العربية والعالمية وقلّة من السوريين من يرتادونه لبعده عن دمشق وأسعار غرفه الباهظة.

إلا أحمد الذي كان يملك غرفة دائمة له هنا يحضر معه كل يوم حسناء جميلة. لذلك مصطفى أحضرها إلى هذا الفندق بالذات لعلهم يعودون إلى بعض.. وتنتهي مشكلتها على خير، كانت هذه فكرته هو وزوجته وفكرة والدها وفكرة أحمد نفسه. وكأنهم اجتمعوا جميعا للمرة الثانية لذبحها مرة أخرى.

جلست مع هبا تحدّثها بتفاصيل يومها دون أن تنس شيئاً، هاهي أمنيتها في إيجاد عملٍ تحققت، إلى متى ستبقى تنتظر طيفها أن يعود إليها في حلم جديد، هي تريده واقعاً ملموساً تلمسه.. تتحسسه.. تشم عطره.. تضمه.. تبكي في أحضانه.. هل هذا كثير عليها؟ أم أنها أمنية صعبة المنال؟.

كانت تشعر بسعادة لا تدري مصدرها حين دخلت غرفتها، ربما لأنها عادت إلى سجنها فهي اشتاقته فعلاً، أو ربما لعثورها على عمل أحست بأن هناك لقاءاً بات قريباً.

احتضنت صورته، قبلتها، تأمّلت سمار وجهه وكأن الصورة تتكلم عن صمته. مضى على آخر لقاء جمعها به قرابة الشهرين. وها هو الشوق عاد يأكل أجزاءاً منها،

بدأت تتحدث مع صورته:

- لماذا رحلت وقررت الغياب دون سبب واضح؟ لماذا قررت انتهاء كل شيء هكذا فجأة دون أي مبررات؟ ألا تسمع نبضات قلبي المشتاق، ألا تدري كمية الحنين التي خبأتها لك، لك وحدك.

عد إلي لأراك ولو ثانية أو جزء منها، وبعدها ارحل كما تشاء، لكن أرجوك لا تطل الغياب كثيراً.

وثنت ركبيتها كعادتها لتبدأ بنحيب متواصل مدته ساعة أو أكثر، وقالت في صمت (ومن أنا ليشتاقني أو ليغرم بي، هو ليس إلا طيف جاء من مكان مجهول ليعود إليه، ولكنه كان جميلاً ودافئاً.)

الدفء يشع من نظراته، والابتسامة، آه ما أروعها حين تبان على وجهه، أفهل هذا ذنبها أنها أحبته دون أن تدري، أغلقت كل حصون قلبها لكي لا يقتحمها أحد ونجح هو في دكّ حصون فؤادها.

تبحث عنه في الدروب كمرأة أضاعت فلذة كبدها لعلها تصادفه، بحثت على مواقع التواصل الاجتماعي ولكن هيهات تجده وهي لا تعرف حتى اسمه الذي هو ابسط تفصيل.

كيف سيكون اللقاء إن وجدته، هل ستضعف أمامه وتبكي؟ ربما ستبتسم له ببلاهة وتمضي، لا تصدق عيناها حقيقة وجوده، وربما سيركض هو بدوره ليعانقها، لن تمانع بذلك فهو الحبيب المنتظر، وهو الحبيب العابر.

مسحت دمعتها المتمردة كعادتها والتي باتت تكرهها لكثرة انسكابها في الآونة الأخيرة. وقفت أمام مرآتها لترى تجاعيد الزمن على وجهها الشاحب، هي تدرك بأنه مجرد حلم ولكنها تدرك أيضا أنه مع الأيام سيغدو واقعاً، ستجده حتماً لأنها لا حبيب لها سواه. هو فارسها شاءت أم أبت الأيام سيبقى فارسها.

زادت حالة الاكتئاب حين تذكرت اتصالات والدتها المتكررة لتعرض عليها عريساً جديداً أو كما يسمونه عريس لقطة فعائلتها لا تفكر إلا في زواج ثانٍ يعيد للعائلة طهارتها، وكلما محت هذه الفكرة من ذاكرتها تعاود والدتها الاتصال لتمدح عريساً جديداً دخل إلى القائمة ممن دفع سعراً أعلى، وكأن تزويجها مرة أخرى سيجلب لهم السعادة، هم فقط من سيسعدون ويرقصون على جراحاتها، سينعونها مرة ثانية وسيشاركون في تشييع جثمانها، ستكون معهم وستشارك في تشييع ذاتها' ستدفن نفسها بأمر منهم، وسينهالون عليها بالتراب كي لا تعود مجدداً إليهم.

صدقوني لن يكترثوا لحياتها الجديدة. نجحوا إذا في غسل العار من طلاقها الأول الذي شكل صدمة لكل عائلتها، فالعائلة لا يجب أن تبق فيها نساء مطلقات يجلبن لذويهم العار، وهل كل مطلقة هي عار.

وماذا لو عرفوا بشأن ذلك الحب الثاني المتواجد على المحطة التالية في حياتها، خائف من ردود الفعل حين يظهر للعيان، وسيبقى متوارياً في الظلام خلف الكواليس إلى أن تأذن له رحمة ربي بالظهور لها قبل غيرها.

وكالعادة تغلق أمها سماعة الهاتف في وجه منى و المتربع على الطاولة الخشبية، وهي تردد (حسبي الله ونعم الوكيل). وكأن الوكيل هو من أمرهم بدفنها مرة أخرى.

إلى متى ستبقى على هذه الحال بينها وبين أهلها؟

إلى متى سيظل أهلها منبع عزائها وتعاستها؟

كيف تخبر أهلها عن ذاك الحب الذي اجتاح كيانها فربما سيتوقفون عن إرسال العرسان لها، ولكن كيف؟ وهم لا يؤمنون بحب حي كيف يؤمنون بحب ولد في أحلام عابرة، وحتى المشاعر لا يؤمنون بها

يعتبرونها أشياء سطحية وسخيفة، فالحب في نظرهم يأتي بعد الزواج، وكل شيء قبله مجرد ترّهات.

فوالدتها تزوجت من والدها لأن نساء عصرها يفعلن هكذا، لم تدري إن هي أحبت والدها أم لا، لكنها كانت تحترمه فقط لأنه زوجها واحترامهها له واجب، وبنت علاقتها معه وأنجبت بناتها على أساس الاحترام وليس الحب، ويجب أن تكون جاريته ليس إلا، المرأة يجب أن لا تتبع قلبها أو مشاعرها، المهم في النهاية من تتزوج وحتى إن لم تحبه فيكفي أنه زوجها لتحترمه وتكون كالخاتم في إصبعه.

عادت إلى قبرها الأول كيف دفنت فيه، لم تكن تطيق أحمد بتاتاً، ووافقت على زواجها منه مرغمة، لذلك كانت حياتها جحيما لا يطاق لأنها رفضت أن تكون جارية له، رفضت أن تساير زمان عصرها لأنها ليست آلة بتاتاً هي أنثى ولها كيانها واحترامها.

إذا كيف سيعترفون أهلها بحب منى لذلك الطيف وهم من يرفضون فكرة حب إنسان جاء من صميم الواقع وليس من قلب الأحلام. أحلام غريبة أشبه بليالي ألف ليلة وليلة.

ولكن.. يبقى السؤال الأهم والذي يراودها دوماً لماذا جافاها؟ بعد أن علقها به.

حتى الرجال وهم أطياف لا يكفون عن عاداتهم الذكورية فيرحلون فجأة ودون سابق إنذار.

بدأت حياتها تأخذ منعطفاً جديداً، في عملها تختلف عمّا تكون عليه في منزلها، هناك سعادة وعمل، وهنا وحدة وانتظار،

كانت تمتاز بالهدوء والصمت وابتسامتها الصغيرة. مما جعل طاقم العمل يرحب بها ويسعد بها كفرد منه.

ولكن لم تكن تدري أنه ستفاجئ يوما بعد شهر من عملها هناك به .. بأحمد زوجها السابق.

نظر إليها مراراً وكأنه على علم بتواجدها هنا، تأملها وكأنّه لأول مرة يلمحها.

كسر الصمت حين قال لها بصوته الرخيم:

- منذ متى وأنت تعملين هنا؟

نظرت إليه بذهول، كانت تتمنى أن ترى طيفها، لا أن ترى سجانها، آخر شخص كانت تتوقع رؤيته هنا هو أحمد. أكملت العمل على الحاسوب بسرعة أكبر كأنها تحاول أن تطرده من خيالها متناسية أنه يمكث أمامها بنظراته الحادة.

- لم يتغير فيكِ شيء، بل كل شيء تغير فيكِ.

ابتسمت ابتسامة صفراء ولم تجبه، وحتى لم تكلف نفسها عناء النظر إليه. تمنت أن لا يطول وقوفه أمامها، تمنت أن يختفي في هذه الدقيقة. لكنه كان معاند ومكابر.

- إلى متى سيطول صمتك؟
- لا أريد التحدث معك.. أنت بالذات لا أريد فتح أي حوار معك.
- لكنني أريد،، أريد التحدث معك لأبلّغك بندم ورائك خلق،، لأبلغك بمساحات فارغة خلفتها ورائك، أريد أن تصفحي عني، لنفتح صفحات بيضاء خالية من أية شوائب.
- أعتذر لك وبشدة، لأنك طرقت القلب الخطأ، قلبي أغلقته بمفتاح، ولن أعيد فتحه لك، انت تريد أن تتملكني، لا يوجد مساحة للحب في قلبك.

- لن يكون هذا آخر لقاءٍ لنا، سنلتقي مجدداً، فهذا الفندق لي غرفة خاصة به، ويسعدني أن أراكِ دوما هنا.

تركها وصعد إلى غرفته، وتركها في حزنٍ وهي تصب عليه آلاف اللعنات في سرها، الآن باتت تمقته كثيراً، يا لغروره المتعالي، لم تكن تعرف سر قوتها آنذاك كل ماعرفته أنها يجب ألا تبكي. ويجب عليها مسح الدموع قبل ذرفها، رأت في عينيه نظرة ندم وحزن.

لماذا لم يرَ جمالها الأخاذ حين كانت في بيته وعاملها كجارية حينها، فنحن البشر هكذا لا نرى جمال الحبيب إلا بعد فراق طويل،وكأن الفراق يزيّننا لنبدو أجمل مئات المرات عما كنا عليه حين كانوا معنا، فقط حين تأتي لحظات الوداع وتحين نتذكر أن لنا على الطرف الآخر أحباب ربما سنلتقي بهم يوما، في صدفة أو بقصد.

حين عادت إلى البيت، جلست تتناول طعام الغذاء في المطبخ والمؤلف من الأرز والفاصولياء، هذا طعام منى المفضل لذالك كانت تأكل بنهم، تذكرت ما حدث معها اليوم فكسرت الصمت حين قالت:

- رأيت اليوم أحمد

- أين رأيته؟ وماذا حصل؟ هل تحدّث إليكِ؟

- في الفندق لديه غرفة دائمة، يأتي إليها مراراً، ولكنه لم يتفاجئ لوجودي هناك، وكأنه على علم بذلك.
- ولكن لماذا لديه غرفة دائمة في الفندق.
- لكي يستطيع إحضار ما يرغب من النساء، فبيته في حارة شعبية قديمة، وجيرانه كثر، وكلهم يعرفونه جيداً.
- إذاً حدثيني ماذا حصل أيضاً؟
- يريد العودة إليّ، ويدعوني للعودة إليه.
- تباً له، ألم يعتذر عن جرحه لك لسنتين متتاليتين، وأنتِ في بيته.
- لا.. لم يقل شيئاً، هو لم يستوعب بعد بأن قرار الفراق أخذته أنا بدلاً عنه.
- وماذا أيضاً؟
- بدوت في نظره جميلة جداً. وكأنه لأول مرة يلمح جمالي.
- ولماذا الآن بالذات بعد فراق دام سنة.
- لا أدري.. صدقيني.
- ربما سيعوضك الله بما هو خير لك. وماذا عن فارس أحلامك؟

obeikan.com

ابتسمت منى ابتسامة صفراء، وتنهدت بحزن وقالت:

- آه... كم اشتاق إليه، لا أعرف كيف السبيل إلى وصاله، كل دروبه مغلقة. أهذا هو الحب أليس كذلك.

وتلألأ العسل في عينيها الصافيتين.

ابتسمت هبا لها بكل حبٍ.

- الحب يكون بين طرفين تنشأ بينهما علاقة غرامية. ولكن بين إنسان وشبح في الأحلام لم تحصل من قبل.
- وحصلت لي.. سأبحث عنه لأجده، ولن أتخلى عن حلمي ماحييت.
- ستبقين في أوهامك وأحلامك العابرة.

صمتت لبرهة وغادرت المطبخ بعد أن أنهت ما في صحنها وتركت هبا في حيرة من أمرها، فهي مصرة أن لا تفهمها.. لن تفهم أبدا حب منى لفارسها.....

***

في غرفتها يختلف الوضع كلياً. ما إن تطأ قدماها أرض الغرفة حتى تشعر بحنين يثقل كاهلها، تختفي البسمة فتحلّ محلها دمعة قهر، تستلقي في سريرها وتعبث بخصلات شعرها الناعم المنسدل كالشلال على كتفيها، تحاول النوم فيقاومها وكأنه على حرب ضروس معها، تنهض، تسير في غرفتها قرابة الساعة دون أن تتعب قدماها، جيئة وذهاباً. تقف أمام مرآتها، تبتسم لمنى الصغيرة، ذاتها التي نسيتها في خضم البحث عن فارسها، بيدها رسمته تداعب خصلات شعره الأسود، تقّبل الصورة، تحتضنها، تنسكب الدمعة على خده فتحيلها إلى اصفرار شبيه بالصدأ، تعود فتحتضن اللوحة مرة أخرى لتحتضن معه عمر كامل من الخيبات المتلاحقة، تبكي سراً، تبكي جهراً، إلى متى ستبقى في شوق عارم إليه؟ إلى متى سيبقى فؤادها أسيراً لقلب غريب، تعاود البكاء من جديد، تئن، تتأوه، تنتحب،تحاول الصراخ، لكن عبثاً ما من مسمع لنداءتها.

يرسم ذهنها صوراً لجنازتها إلى منزلٍ آخر، ودفنها من جديد بمباركة الكل. تنفض عن ذهنها هذه التخيلات، لتغمض عينيها فيتمثل لها بشراً سوياً، ولكنها تفتح عينيها فتطلّ صورتها من المرآة، هي تريده واقعاً لا حلماً عابراً ينتهي حال استيقاظها.

كل يوم تكمل الحكاية نفسها إلى أن يهبط الليل، تنام وهي تحتض صورته لتراه في المنام، وفي الصباح حين تفتح عينيها على واقع لا ترغبه تتراءى كل أحلامها أمامها إلا هو. تحلم بنصف سكان الكرة الأرضية ما عداه، تحلم بالكوارث جميعها من زلازل وحرائق وبراكين وحروب ولا تراه، أشخاص يدخلون إلى عالم أحلامها خلسة وكأنهم جواسيس يتلصصون عليها، من هم ؟ وما هدفهم من اقتحامهم عالمها. تحاول النوم مجدداً، ربما يأتيها في اللحظة الأخيرة معترفاً بحبه لها، ولكن هيهات أن يعود، تبقى تراودها الأفكار ذاتها إلى أن يرنّ المنبه معلناً الساعة السابعة.

***

جلست في مكتبها، حزينة بعض الشيء، صامتة وهادئة كعادتها، وبعد مرور ساعتين من العمل المتواصل دون أن ترفع رأسها أو تطالب باستراحة قصيرة، كانت منى من هذا النوع المجدّ في عملها، جاءها مالك زميلها في الفندق والذي أعجب بهدوئها اللافت للإنتباه.

كان مالك قوي البنية، ذا عينيّن بنيّتين وحاجب عريض، كان شعره أسود لامعاً، وذقنه خفيفة مما أعطاه جمالاً فوق جمال،

جلس ليتأمل هدوئها الأخّاذ، وذات الوقت سرعتها على لوحة المفاتيح وكأنها في حرب معها، كسر الصمت هو أولا بعد أن رآها لم تهتم لوجوده جنبها.

- متى ستظلين تعملين بكل جهد وطاقة، بهذه العصبية المبالغ بها،

تفاجئت منى وكأنها لم تنتبه له أبداً، نظرت إليه ببلاهة وكأن عينيها سهم تريد اختراق عينيه لتعرف لماذا حشر نفسه بعصبيّتها، ولكنّها صمتت وأخفضت بصرها لتكمل ولكن هذه المرة بهدوء أقل.

- ما قصة الحزن المسيطر عليكِ، ما قصة الصمت المطبق عليك.

وقفت منى لتهم بالمغادرة فهذا المخلوق يريد اقتحام عالمها فعلاً، وهي التي أغلقته بمئة مفتاح خوفاً من الناس لئلا يشاهدوا الحب والخوف اللذان ولدا في داخلها، ولكن من هذا المتطفل الذي يريد معرفة كل شيء عنها.

أمسك بيدها لتجلس، فسحبتها منه عنوة، ولاذت بالفرار لتحتمي خلف شجيرات في الحديقة، وتركته في تساؤلات عديدة، وتركها في خوف من تكرار ما حصل.

هي باتت تكرههم كلهم باستثناء فارسها المبجل.

وبعد أن هدأت نفسها عادت إلى مكتبها من جديد، بعد أن تأكدت أنه رحل، كانت شاردة الذهن تفكر في كل شيء ولا شيء في الوقت نفسه.

لكنه كان يسترق النظر من بعيد، في ذهنه آلاف الأسئلة التي ينتظر جوابها، يراها دون أن تراه، يراها وهي متقوقعة على نفسها، حبيسة عالمها، حاول الدخول ولكنها منعته بقوة، رآها متحفظة جداً، ولكن من يمنع مالك من المحاولة مجدداً لفهم لغز عالمها....

***

مرت سنة ونصف السنة على انفصال منى عن أحمد، سنة ونصف وحياتها تتخبط في مستنقع مجهول المعالم، حياتها أضحت مزيج بين سعادة وتعاسة، بين أمل ويأس، مرت شهور ولم تره بتاتاً، لم يظهر في أي حلم من أحلامها، حاولت أن تنساه أن تقنع نفسها بأنه مهما عاد وأتى يبقى طيفاً ينتهي حالما تصحو على واقعها،

إلى أنه جاء ليفنّد إدعاءاتها، في ليلة يناير الباردة عاد إليها، هذه المرة رأت شعاع الحزن يطلّ من عينيه الصغيرتين، اقتربت منه قليلاً

لتواجهه، نظر إليها بتمعن ولأول مرة همس لها (اشتقتك)، قّبل يديها قائلاً لها (حين تشتاقيني أكتبيني، أكتبيني حتى تمليني، لا تحبسيني في قلبك كعصفور تهوين غناءه، دعيني أعيش ولو لمرة في صفحات كتبك، أتنقل بين سطورك، أشتم عطر أحبارك، أتنفس هواء أنفاسك، أكتبيني لأعود وأقرأني، أقرأ نفسي. ورحل إلى العدم كما جاء من العدم، هل حبيبي ملاك؟ أم من ملوك الجان؟ فحبيبي ذو كبرياء حاد لا يليق به أن يكون مجرّد رجلاً عادياً.

تململت في فراشها وفتحت عينيها العسليتين، تريد أن تتذكره من جديد، تحاول أن تعيد المشهد في ذهنها آلاف المرات حتى تملّه، ولن تملّه.

نهضت من سريرها لتجلس وراء طاولتها وتفتح دفتر مذكراتها الوردي، آه كم هي عاشقة للون الوردي، لونها المفضل. وبدأت تكتب له ولأول مرة.

لما كل هذا الحزن يطلّ من عينيك السوداوين.

هل أنت في حالة شوق وبك حنين فتّاك يفتك بك. أم أنت مريض ولا تبالي.

ها أنا أكتبك بعد أشهر عديدة في محاولة مني لنسيانك.

أكتبك وسأبقى أكتبك، لن أملّك كما تدّعي أنت، فربما ينبت الحبر من بين أصابعي ليزهر فارس بلا جواد.

أخبرني عن بريق الحزن الذي يطل من عينيك البراقتين.

أخبرني بالله عليك أين كنت كل هذه المدة؟ وماذا كنت تفعل؟

ماذا أكتب عنك ومعي ألف صفحة بألف دفتر لا ينتهون حتى لو انتهى الكلام.

فمثلك يعشق لا يكتب.

ماذا أكتب عنك وأنت الجواد الكريم، الفارس الأصيل، الحنون الدافئ.

أيكفيك هذا يا فارسي أم أسترسل أكثر.

ماذا أكتب؟ وكيف أكتب؟ وأنت في كل حكاية تطلّ بحلم جديد، بشكل جديد، وحب جديد.

ماذا أناديك؟ سيدي.... فارسي.... أميري.... حبيبي....

obeikan.com

أخبرني أيها أحب الأسماء إليك لأناديك بها.

أخبرني بالله عليك لماذا عدت الآن وكنت قد تناسيتك. وأنا التي بكت غيابك في الليلة مئات المرات.

في كل دقيقة تمضي أرى طيفك أمامي وكأني في حلم جيد.

عدت بعد أن تناسيتك وعشت حياتي كما تجب.

عدت بعد أن أيقنت بأنك وهم زائل، سراب لبقعة ماء في صحراء مقفرة. ملك جان يحب العبث بأحلام الآخرين.

عدت بعد أن فتشت عنك كثيراً، تأملت الوجوه كلها، لكنني لم ألمحك بينهم ، يالك من شيطان تلبس قبعة التخفي.

أخبرني يا فارسي عن اسمك، عن بلدك، عن هواياتك، عن عمرك، عن دراستك، عن كل شيء تعشقه، وكل شيء تكرهه.

هل تهوى الكتابة والرسم مثلي، أم تعشق كرة القدم فقط،

ما هو معجون الأسنان المفضل لديك؟

obeikan.com

ما هو كاتبك المفضل؟ هل تعشق الروايات العربية أم العالمية؟

ما هو طعامك المفضل؟ وهل تحب طعام البيت أم تفضل الطعام الجاهز؟

أي أنواع الورود تهوى؟ أم تراها سخيفة ومجرد مظاهر فقط؟

هل تعشق هدوء البحر؟ أم تهوى هيجانه؟

أي فصل أحب إليك؟ الربيع والأمل، الصيف والملل، الخريف واليأس، الشتاء والحنين.

هل هناك امرأة غدرت بك حتى بتّ تبحث في أحلامك هن امرأة لا تخون؟

أخبرني يا فارسي كل شيء عنك، تعال إلى واقعي لتخبرني، فأنا امرأة باتت تمقت الأحلام.

لا تكن جباناَ.. أخبرني أمام الملأ بأني حكاية عشقك الأبدي، أخبرني أني لست في أحلامك فقط تراني بل في واقع سيغدو أجمل حين تنشئه أنت.

obeikan.com

أرجوك أنشأ واقعا يجمعنا سويةً، كفاك ظهوراً في أحلامي كاللص المتخفي، سأهبك عمراً كاملاً من الحب والسعادة.

متى ستأتي في المرة القادمة؟ هل ستكون قريباً؟ بعد يومٍ أو أسبوع أو شهر، ولكن أرجوك... أرجوك لا تجعلها سنة. فقلبي على فراقك بات لا يقوى.

انتهت منى من كتابة آخر سطور الوجع، لتدفن رأسها كما النعامة وتنتحب، ولكن بصمت قاتل وحزين.

الحب حين يكتب يصبح حباً أزلياً، يبقى في الفؤاد غرساً طوال الحياة.

ولكنها استطاعت منى أن تحيله إلى لغة تكتبها لتعيش الحب مرتين، مرة في أحلامها، ومرة بين سطور كلماتها، استطاعت أن تخرج ما في جوفها من عواطف مخبأة في حجرة صغيرة في قلبها.

استطاعت أخيراً أن تخرجها للورق لأول مرّة... نجحت بذلك فعلاً.. بكل ألم نجحت.

****

جلست أمام حاسوبها في الفندق الضخم تدون حسابات النزلاء، حتى جاءها وجلس بجانبها بصمت وكأنه يحاول من جديد سبر أغوارها، هذه المرة انتبهت له، فارتبكت قليلاً، وكأنه ضيف ثقيل يجثم على صدرها، هو لا يدري لماذا تعامله بهذه الطريقة العدائية، لكنها هي كانت مصمّمة من منعه من اقتحام قلبها، قلبها لن يكون ملكاً له، هي تخشاه لأنها تخشى وقوعها في الحب، تخشى على قلبها من الوقوع في هيامه في الخطأ إن ظل يقتحم عالمها هكذا. وماذا عن فارسها المبجل وإن عاد يوماً ورآها مع غيره، يدها في يدها، يتعانقان ويتبادلان القبل، لا هذا لن يحدث أبداً. كيف ستخبره حينها أنها جلست طويلاً على حافة الانتظار تنتظر مروره بفارغ الصبر.

نفضت الأفكار من ذهنها سريعاً، ونظرت إلى مالك بكل برود فرأت عيناه تحاول اجتياز الصمت المطبق، أخفضت بصرها خوفاً من التقاء العيون الصامتة. ولكنه كان أجرأ منها في الحب حين أمسك يدها فنزعتها كما في المرة السابقة ولكنه عاد وأمسك يدها مرة أخرى، مما زادت دقات قلبها أضعاف مضاعفة، واختفى الأوكسجين من تلك الدائرة الصغيرة، ابتسم لها ليشجعها ألا تسحب يدها مرة أخرى وقال بصوت مشبع بالحنان:

- لما تخافين من اقتراب المسافات بيننا، تتهربين دوماً.

جلست خافضة بصرها إلى الأرض، تتمنى لو يختفي سريعاً، كان يمعن النظر في عينيها العسليتين، دون أن يزيح عينيه عن تلك العيون.

- عيناك أنهار من عسل أتمنى العوم فيها.
- لم أجلس لتسمعني غزلاً كهذا.

ابتسم لها فأعطته تلك الابتسامة جمالاً زائداً، أما هي تورّدت وجنتاها خجلاً من غزله الجريء.

- أريدك في الحب زوجة لي، أريد أن أفهم نظرات العيون، أفهم سر الحزن الذي يشع منها، أريد الاستماع لصمتك الحزين، هل هذا كثير عليّ.
- ولكني لا أفكر أبداً بالحب حالياً.
- ولكني غارق في عسل عينيك، هائم في ابتسامتك الصافية.

سحبت يدها بقوة وهربت لتحتمي خلف تلك الشجرة كعادتها، وكانت هذه الشجرة ملاذها الوحيد، ثنت ركبتها وغاصت في أحلام ربما هي تعتبرها حيناً مستحيلة، وحيناً آخر تعتبرها ستتحقق ولكن متى؟

obeikan.com

لم يفهم مالك بعد بأن منى تكره الرجال جميعهم، ماعدا فارسها، فقط لأنه جاءها في أحلامها، ولو أنه اقتحم عالمها كما يفعل مالك لكرهته كثيراً، وكثيراً جدّاً.

مسحت وجهها بيديها الصغيرتين، وخرجت لعالمٍ لم ترغب به يوماً، لعالم أغمضت عينيها مراراً كي لا تراه، ولكنها مهما حاولت العيش في أحلامها فقط، يعود الواقع ليطلّ عليها بألم جديد.

وما إن دخلت مكتبها حتى رأته أمامها من جديد، يمعن إليها نظرات ندم لفراقها المبكّر.

في المرة الماضية كانت قوية، لكن هذه المرة رأى الهشاشة تأكل قلبها. رأى الدموع تختفي خلف مقلتيها، شفاهها حزينة، وجهها بائس، ابتسم لحالتها، وكانه قاب قوسين او أدنى من قلبها، تمنّى لو تبكي في أحضانه لتشعره أنها ستعود إليه ذات يوم. في هذه اللحظة بالذات ندم على ما فعله بها، ندم على كل شيء، ندم لأنه خذلها مراراً.

وجين التقت العيون تذكرت كم مرة أبكاها، كم مرة خانها، كم مرة صرخت في وجهه بأنها تكرهه.

هنا وعيناه ما زالت تحدّق بدمعتها الساكنة ندم أشد الندم لتفريطه بها، ندم لتهوره، ندم لأنها أفلتت من يده، ربما هو لم يكن متمسّكاً بها جيداً.

مشى قليلاً إليها وبدون أي مقدمات مسح تلك الدمعة اللئيمة، التي ما فتئت تفضح حزنها امام الجميع. انتفضت لترجع إلى الوراء خطوة، أو ربما بضع خطواتٍ قليلة، اعتذر لها لأنه مسّها دون مراعاة لشعورها، لكنه لم يشأ أن تبق تلك الدمعة متحجرة في مقلتيها. تلألأ الدمع في عينيها، وابتسمت بتهكّم منه، هو الذي كان يتلذّذ بإذلالها يأتيها الآن ليمسح عبرتها، أتراه فعلاً أتى وكلّه شوق لها؟ أم ماذا؟ لم تعد من ممتلكاته، الصفقة الوحيدة التي خسرها في حياته.

تجاوزته وكأنها لم تعد تراه، وعادت إلى حاسوبها، تعمل دون أن تنظر إليه. هي لا تريد أن تفهم بأنه تغيّر، تغيّر كثيراً، لم تعرف بأنه اشتاق لها جداً، ربما لأنها الأنثى الوحيدة التي حطّمت قلبه، الوحيدة التي أسكتت غروره، الوحيدة التي استطاعت أن تخلعه من حياتها، وهو الذي أقسم لها مراراً أن يذيقها كأس الهجر مئات المرات، فسبقته بذلك، ونجحت.

اليوم رآها مختلفة عما كانت عليه، نقية.. جذابة.. فائقة الجمال.. الون الوردي أعطاها طابعا مميزاً، وكأنها خلقت حورية لتتراقص على

دروب آلامه، لم يكن يراها وهي في بيته سوى جاريته وهو سيدها، والآن يراها سيدة وهو العبد.

لماذا في الفراق نصبح أجمل مما كنا عليه، وكأن الفراق يزيننا لنغدو أجمل بكثير،، بكثيرٍ أجمل.

***

وجدت أمها في ضيافة أختها حين عادت إلى البيت، ركضت إليها بكل حب احتضنتها، بكت على صدرها طويلاً، لم تشأ ترك حضن أمها وهي التي افتقدته زمناً طويلاً، تشبثت بأمها كثيراً وكأنها تخشى من حياة خلف أسوار هذا الحضن. بكت كما لو لم تبكي من قبل، وكأنها في ضياع تام.

ظلت هكذا متشبثة بأمها كطفلة صغيرة، وأمها صامتة تداعب خصلات شعرها الناعم بحنان، كانت أمها تعتقد بكاءها الشديد بسبب طلاقها، لم تكن تدري أن هناك حباً يلوح في الأفق.

ماذا تخبر أمها؟ أتخبرها عن فارسها الطيف الذي زارها في أحلام عابرة، ام تخبرها عن مالك وشغفه في مبادلة حبها له، أم عن أحمد

ونظرات الندم ادمت مقلتيه، ولكن هذه الأخيرة لن تخبرها إياها خوفاً من فتح جدال طويل ينتهي بعودتها مرغمة إليه، فلاذت بصمت أليم، ولم تخبرها شيئاً، فقط نامت في ذلك الحضن الدافئ، خائفة من استيقاظها المفاجئ ويكون ملاذها الوحيد قد رحل.

نظرت والدتهما إلى هبا قائلة لها والخوف على ابنتها يعتريها:

- ما بال منى وكأن جبال من الهم تقبع فوق رأسها؟
- لا أدري .. فمنى لا تتكلم عما في قلبها، وكل ما في قلبها أسرار.
- أخشى عليها كثيراً من حياة ستكون صعبة لها، لو أنها ترجع لزوجها، أو تتزوج من آخر، ليرتاح قلبنا قليلاً.
- اتركيها وشأنها، فهي ستقرر يوماً ان تختار رجلها الذي ستعيش معه.
- ولكن مجتمعنا لا يرحم، ونحن في زمان صعب للغاية، المطلّقة في أيامنا يخشى عليها من رجال السوء، فكل رجلٍ يعتبرها سهلة المنال، وبإمكانها بيع نفسها له بكل سهولة ويسر، كل رجل يسمعها أنها بحاجة إلى ظل رجل، لكن العكس هو من يكون بحاجتها، وحين تنهي هذه الحاجة يرميها ويبعدها عن طريقه حفاظاً على بيته،

يتركها حينها جسداً لا روح فيها، ويبدأ بنهش عرضها أم أصدقاءه، ويتفاخر بذلك أنها سلّمته نفسها راضية ودعته إلى استباحة جسدها، وهي من ركعت أمامه موافقة على احتلال جسدها له، وحين تحتاجه لأنها رأت فيه حنان الحبيب يسدّ في وجهها جميع السبل، فهو لم ير منها سوى جسداً، ويبدأ بإذلالها بأنها باعت جسدها له، ويبدأ هو بالتشدق بكلمات الشرف.

- أتركي منى للزمن، وحده كفيل بحل قصتها، ربما تعود لأحمد، أو لشخص آخر يتفوق حباً على أحمد وتسلّمه قلبها بسهولة، حين تختار هذه المرة هي ستختار اختياراً صائباً حينها، ولن تشتكي أبداً،

كانت هبا تقصد هنا فارس منى المبجل، وكأنها بدأت تصدّق حكايات منى وأحلامها عن فارس يحتل كيانها.

فتحت منى عينيها وكأنها استمعت للحوار بأكمله، ابتسمت ابتسامة جذابة، وجلست لتسند كتفها على كتف والدتها قائلة لها:

- لا تخشي على ابنتك، دعوني أقرر ولو مرّة واحدة، أريد هذه المرة اختيار أميري بنفسي، أريد من يتوجني أميرة على عرش قلبه، أريد

حباً حقيقياً، لا من يتملكني بحجة عقد وشهود، يستعبدني تحت مسمّى بيت الزوجية.

لامس كلام منى قلب أمها، واطمئن فؤادها، فأدركت أن منى ستتزوج عاجلاً أم آجلاً ولكن بقليل من الصبر.

أملت والدتها عليها الكثير من النصائح، كونها فتاة والأطماع حولها كثيراً.

كانت تومئ برأسها لأمها وهي تتمنى ان تنهي كلامها بسرعة البرق، لا سيما أن هذه النصائح حفظتهم منى جميعهم على ظهر قلب. كانت تتمنى أن تصمت والدتها ولو لثانية لتعيد على كلامها ما تمليه عليها.

رحلت والدتها بعد ان قبلت جبينها متأملة أن تعود منى إلى منزلها من جديد، لكنها كانت ترفض بسبب كلام والدها القاسي بشأن زواجها وطلاقها.

نظرت منى إلى هبة وقالت لها:

- سمعت هذا الكلام من والدتنا مئات المرات وربما آلاف المرات، لم أحصيهم بعد، ولكن لماذا الرجال بأجملهم سيئون، كل رجل يخطأ

هناك امرأة تخطأ، فالمرأة حين تخضع للرجل يخضع هو بدوره لها، حين يسمعها كلمات الغزل تذوب عشقاً بين يديه، وحين يقبّلها تكون له كما أراد، فبالنهاية الخطأ يتولد من الرجل والأنثى على حد سواء.

أغلقت غرفتها وكأن سراً غريباً فيها، وكأنها تخشى على فارسها من الهروب، اشتاقت لغرفتها فهي بعيدة عنها قرابة الساعات، فيها تعيش العشق منفردة، وفيها تحلم بكل ما تشاء وترغب، وقفت أمام مرآتها تتساءل في سرها عن هذه المفارقة العجيبة فارسان يريدان احتلال قلبها لكنها أحدهما شاب والآخر طيف في أحلام مجهولة يظهر، هي لا تريد سواه، تضاربت مشاعرها في هذه اللحظة. عقلها يريد مالك وقلبها يريد فارسها، أخفت مشاعرها تجاه مالك لتمنعها من الظهور مجدداً، فهي لن تكون سوى لحبيب اقتحم عالم أحلامها، هو الأحق بمشاعرها الجياشة.

جلست على طاولتها وفتحت دفترها، فسافرت عبر خيالها إلى أماكن عديدة وهي ما تزال جالسة في مكانها، لحظات صمت مرت بها قبل أن تشرع بالكتابة.

اليوم مختلف عن باقي الأيام، فوالدتي التي قاطعتني فترة لا بأس بها من الزمن ها هي تأتي إلي، ولا أدري لماذا؟

يناير اليوم يحمل برداً فظيعاً، ربما حين يجتاحني البرد لا أتذكر سوى دفء أنفاسك، فأصبّ آلاف اللعنات على يناير.

حبيبي أو فارسي اليوم لمحت ولهاً في عيني مالك، كانت نظراته تستنجدني أن أجيبها، ولكني كنت أهرب خوفاً على قلبٍ أودعته أمانة لديك، لا أدري متى سأصبر على جنونه العشقي.

أميري العزيز اليوم لمحت ندماً في عيني أحمد أتراه نادماً حقاً أم أنه لم يحتمل أن يراني حرّة طليقة دون قيود، أتراه أحبني حقاً حين غادرت حياته، أم ماذا؟

سيدي المبجل اليوم لمحت نظرة رجاء في عيني أمي، لا أدري كيف لمحت تلك النظرة في عينيها، ولكن أدري بأن والدتي تخشى علي من الرجال جميعهم، لم أخبرها عنك خشية أن تحذرني منك، ربما لا يشملك قرار أمي بأن أقاطع جميع الذكور، فأنت خالداً في قلبي ما حييت،

أخبرني يا صديقيٍ متى سيؤول اللقاء بيننا، متى ستعود إلى واقع يجمعنا، فقد سئمت من تلك الضغوط، سئمت من حياة أنت لست فيها، واقع لا يجمعنا لا أريد العيش فيه.

عد إلي ولو بحلم شهي، ثواني فقط اقتطعها من أحلامي لتعبر أنت ونلتقي، أرجوك أريد أن أراك بين سطوري من جديد، سأدع العنان لقلبي ليكتبك كما يرغب هو، سيتوّجك فارساً بين السطور.

أغمضت عينيها ليتراءى لها فارساً بلا جواد، وهي أميرته ذات الرداء الوردي، تتراقص أمامه كفراشة من ذهب، ونظراته تهيم بها حباً.

نامت وهي على الطاولة من فرط ما فكرت به لكن سرعان ما فتحت عينيها على رنين هاتفها، كان ذلك مالكاً، ماذا يريد منها؟ ولماذا يتصل بها؟

ردّت على مكالمتها تستمع له وهو يخبرها بقلب أذابه حبها له، شرح لها ما في قلبه من عشق، كان يتحدّث وهي صامتة تجيبه بين الفينة والأخرى بكلمة نعم أو لا، سألها مراراً إن كان هناك حباً يلوح في الأفق في حياتها، لكنها كانت تصمت فهي إلى الآن لم تعتبر حب فارسها بحب حقيقي.

حين تأكّد بأن ليس له منافس سألها عن خوفها الشديد من التلفّظ بكلمة حب لم تجبه حينها لأنه لن يفهمها ولن يفهم هذا الخوف الذي يعتريها.

اعتذرت منه منى وأغلقت هاتفها كلياً خشية معاودة الاتصال بها مجدّداً.

في تلك الليلة الباردة لم تحلم بأي شيء، ربما ثلج يناير كان السبب في ذلك، فحبّات الثلج كانت تتساقط على النافذة مصدرة صوتاً عميقاً، مما جعل نوم منى متقطعاً،

ورحل يناير وراء إخوته سريعاً وأعقبه أشهر الشتاء القارصة، عاشت فيها منى ليالي و أياما صعبة، في ضياع تام كانت تعيش، كانت بحاجة للحب الصادق، النابع من القلب، ولا أحد يستطيع منحها إياه سوا مالك، تحتاج لكتف تستند عليه في هذا الشتاء القارص. مالك فقط من يستطيع سحبها من بوتقة الأحزان، فكلما ازدادت ليالي الشتاء برودة ازدادت هي حنياً لشخص مجهول.

تذكرت شتاءها في منزل أحمد كيف كان ينقضي، لا يختلف عن برودتها هنا في هذه الغرفة الصغيرة.

يغيب شبح أحمد عن عينيها ليتراءى لها مالك وعلى فمه شبه ابتسامة مكسورة، في عينيه لمحة حزن، بريق أمل، دمعة ألم، في نظراته تتركز كل معاني الوله.

ولكن ما فائدة تقرّبها من مالك وفي قلبها يتوضع رجلُ آخر وإن كان طيف فهي تكنّ له حباً كبيراً.

كانت تخشى الاقتراب منه خوفاً على خيانة منها إذا عاد فارسها في حلم جديد، كيف ستعيش حينها، حتى وإن كان شبحاً في منام فالخيانة هي الخيانة، سواء مع شبح أو إنسان.

ماذا فعل لها قلب مالك الطيب لتركله بقدمها وكأنها لا تبالي لتلك المقلتين النازفتين، ولكن ما ذنبها هي إن تنبأت لقصة حبّه بفشلها قبل أن تبدأ وأخبرته مراراً أنها امرأة لم تعد تصلح للحب.

امرأة كان فيها شيء حي وذبل، كل ما فيها مات، فكيف يا مالك تحاول سقياها من جديد؟ لماذا تحاول إحياء قلب لم يعد فيه سوى بعض الندوب....

***

عاد مارس وربيعه الدافئ مرة أخرى دون أن يحمل معه رسالة من ذلك المجهول، رأت منى ورود الربيع وهي تتفتح من حولها، وكأن الفراشات كانت تتراقص على تلك الورود، والعصافير كانت تغني لتلك

الفراشات، وحتى الشمس كانت سعيدة لإحساسها بسعادة منى بفصل الربيع.

كان كل شيء في الربيع هادئاً، وهناك ملاك كان يربت على كتف منى كل حين بأن هناك موعد سيحصل قريباً. تتمنى في سرّها أن يكون هنا.

نعم كان هناك موعدُ، لم يكذب الملاك بهذا الشأن، ولكن وهي نائمة جاءها في موعدٍ جديد...

مسح دمعتها الخجولة بطرف إصبعه وقال لها بكل دفء (عديني أن تبقي لي مهما حدث) كانت تفتش في عينيه عن لغز مبهم، تريد كشف أسراره كلها، أطال النظر إليها وكأنه أيضاً يحاول اكتشافها، هي لم تفهمه إلى الآن وربما لن تفهمه، كان هو يريد أن يثمل من عينيها ليذوب سكرا، وهي ما زالت على هدوءها تحاول أن تفهم نظرة عينيه، هدوءه الذي تجاوز الحد، نظراته تجعلها تنجذب نحوه بقوة دون أن تدري لماذا؟

غاصت في أحضانه، ضمّها بكل حنان وبقوة عاشق، شهقت وهي مختفية في أحضانه، كأنها تهرب من الواقع إليه، وإلى أحضانه الملتهبة، ربت على شعرها بكل حنان وقبل جبينها كعادته، أحسّت منى بأن

سيرحل وهذه المرة ربما لن يعود لذلك لم تتمكن من حبس دموعها التي انسكبت بغزارة الشلال، مسح تلك الدموع وغاب كما جاء.

استنجدته ألا يرحل، فليبق ولو قليلاً لتفهمه أكثر، نادته بصوت مخنوق ولكنه غاص في أعماق أعماق الأحلام، ولا أمل لعودته.

أفاقت وتلك الدمعة التي بدأت بالانسكاب بعد أن رحل ما زالت جاثمة على خدها وكأنها تهزأ بها، مسحتها بقوة وكأنها تحتقرها، ونهضت لتكتبه من جديد...

أأكتب يا سيدي الآن عن حزنٍ أطالني وأطالك، لا تنكر يا أميري أنك لست بحزين، فالفراق هو الفراق.

أأكتب يا سيدي عن دروب مجهولة الملامح التقينا بها صدفة، لنعيش أروع الأحلام ونحن نيام.

أأكتب يا سيدي عن أعوام من القهر والألم، وحالما رأيتك في ذاك الحلم، أدركت حينها أننا ذات يوم سنعشق بعض، ولكن لم أدري بأن ذلك العشق سيبقى في أحلام لن ترى نور الواقع إطلاقاً.

أأكتب يا سيدي عن ساعة بنت العنكبوت بيتها عليها وهي تدقّ في ذات موعد الفراق، وعن أي فراق أتحدث إن كنا نفترق أكثر مما نجتمع.

أأكتب يا سيدي عن خيبة تلاها جروح تلاها طعنات أدمنت القلب.

أأكتب يا سيدي عن غدر سهم ما زال إلى الآن عالقاً في ظهري ينزف دماً.

أأكتب يا سيدي عن غيابك الذي يطول الأشهر لتعود مجددّا محّملاً بشوق عاصف. كلما أحاول نسيانك تقتحم عالم أحلامي مجددّا لتتركني عالقة في سماء الأحلام، رافضة كل واقع يكتب بدونك.

وكأنك علمت بمالك الذي جاءني عاشقا فثارت عليك غيرتك وجئت إلي لتخبرني أن أبق لك، لك وحدك سأبقى.

هل أنا فتاة حقاً ولست جنية مثلك، إن كنت فتاة بحق، لماذا لا تتركني أعيش كباقي الفتيات من عمري، يعشقون إنساناً سوياً، لا شبحاً في أحلام مختلفة.

لا تجعلني أسيرة لك، أرجوك يا سيدي فكّ قيدي، واتركني أنعم بسلام، انا لا أفهم تلك النظرات، لا أفهم تلك الكلمات، أنا حقاً بتّ لا أفهم شيئاً،

بتّ أخشاك يا سيدي كثيراً، هل صعب علي أو محال ان أعرف من أنت.

هل رأيت عصفوراً يعشق سمكة...

فأنى لي بحبك وانت في الأحلام مجرّد طيف وأنا في واقع لا يمتّ لك بصلة.

انتهت من الكتابة وكعادتها أودعت دفترها في درج الطاولة قبل أن تغلقها بإحكام خشية أن يهرب من بين سطورها.

***

بمسافة ليست بالبعيدة عن الفندق ارتجلت منى من الباص، ومشت وورد مارس محاطة بها من كل جانب، كانت شقائق النعمان تزيّن الطبيعة وكأنها لوحة رسمت بريشة فنان مبدع، سارت في الدروب ذاتها التي كانت تسير فيها ولكن هذه المرّة كان معها في ذهنها يقبع، لا يريد الانفكاك أبداً، كلّما حاولت منى طرده من ذهنها، يتمسّك بقوة رافضاً منها أن تتذكر شيئاً غيره.

obeikan.com

يعيد على خيالها الحلم ذاته مئات المرات، وفي كل مرة تكتشف شيئاً جديداً، كعينيه المليئتين بالحزن والفرح بآن معاً، لا تدري كيف قادر هو على جمع التناقضات في شخصيته، كيف لا وهو رجل التناقضات.

وصلت لعملها وحاولت ألا تكلّم أحداً فهي لا تريد سوى صورته في ذهنها لا تريد تشويشاً من أحد. ولحسن الحظ كان مالكاً متغيباً في إجازة بسبب زواج أخته الصغرى، مما مكّنها من العمل على الحاسوب بكل طلاقة ويسر.

بدأت تحتسي قهوتها على أنغام فيروز وصوتها الهادئ (أنا عندي حنين ما بعرف لمين) كأن هذه الأغنية بالذات كتبت لها وحدها، فكيف تنساه وكل شيئ في واقعها يجبرها على تذكره.

ارتعدت أوصالها فجأة على صوته الرخيم... آخر شخص كانت تتمنى رؤيته اليوم، هذا اليوم بالذات أحمد.. نظرت إليه وابتسامة كبيرة على شفاهه رسمها لأجلها.

لم تهرب منه بل استمعت إليه لتعرف إلى أي درب سيسلك في النهاية، أخبرته بدربها الطويل ولا مجال لتلتقي بدربه المعوج.

رأت حزناً حقيقياً في عينيه، طلبها من جديد وهو نادم، نادم لأنه سمح لنفسه بإذلالها، ولكن كيف يعيد شيئاً كان قد كسره وأصبح ركاماً ورقص على جراحها بسعادة وحبور.

عيناه كانت تريد التهامها، وكأنه يفتش عن سبب قوتها، ولكنها بلحظة ضعف أخبرته أن هناك من تملّك قلبها، ولا مجال للتراجع. كانت تريد التنصل منه بأية وسيلة لذلك أخبرته بهكذا جواب.

احمرّت وجنتاه غضباً أصبح كالشعلة المتقدة، زفر، ارعد، صاح بوجهها، أمسك بيدها بقوّة وهددها أنها لغيره لن تكون.

تركها وغادر والغضب يأكله، أمسكت يدها التي احمرّت من جراء قبضة يده القوية ومسدّتها برفق، وعلى شفاهها لاحت ابتسامة نصر، هذه المرّة لم تبكي، ولن تبكي، لقد كبرت على ذرف تلك الدموع الغبية.

استطاعت بكل سهولة ان تشرح له بأن العودة إليه شبه مستحيلة، ولكن إذا تدخل والدها لن يكون هناك شيئاً مستحيلة، مرّة أخرى سيزف جثمانها إليه في فرح مهيب.

إذا كان يحبها فعلاً، ما هو ترتيبها بين فتياته، لم بعد ان احتفلت بفراقها منه يعود مجدّداً إلى ساحتها ليجبرها عنوة على الرجوع إليه سواء حلالاً أو حراماً، ما يهمه أن تعود كما كانت جارية له.

استطاعت ان تبكيه قهراً كما أبكاها هو، لم يبكِ أمامها، ولكن قلبه من كان يذرف دمعاً وندماً.

ربما الآن فقط عرف أنه خسرها، خسر امرأة لا تعوض، فأنى له مثلها بجمال أخلاقها وطيبة قلبها، لم تكن له زوجة فقط بل كانت أكثر من ذلك كانت له أم في مرضه، أخت في شكواه، حبيبة في فراشه. أما هو فأبى أن يكون لها الزوج العطوف، كان لها سجان طمع في استباحة جسدها، وحين كانت له ما أراد هرب منها لأخريات كثر. كان ينتقم من طيبتها بالهروب منها، كان يتلذذ بإذلالها حين يحادث عشيقاته أمامه وكأنها صخّرة صماء لا تسمع ولا ترى، كان يلمح دمعة الانكسار في عينيها ولا يرقّ لها قلبه، كان سعيداً لما يفعله بها.

والآن وقد ندم على كل ذلك ... هل ستعود منى إلى ذاك البيت مجدّداً.

***

استشاط أحمد غضباً في مكتبه لما سمعه من منى، وبقبضة يده ضرب طاولة مكتبه بقوة، مما أحدث شرخاً فيها، مهدداً كل من يحاول الاقتراب منها، أو حتى لمسها، فهي ستبقى كما كانت ملكاً أبدياً له، لن يدع أحد يأخذها منه، حتى لو كلفه ذلك التوسل إليها.

ألهذه الدرجة بات يحبها حتى يتوسّل إليها وهو الرجل المجبول بكبرياء لا يقاوم سيتوسل لمنى لتعود إليه مجددّاً.

هدأت نيران قلبه قليلاً، فجلس على طاولته حابساً رأسه بين يديه، يفكر في أسهل الطرق لجذبها نحوه.

ومن هذا الذي تحدّثت عنه منى، عن حبّ يلوح في حياتها، من يجرؤ على الاقتراب منها والتفكير بأخذها بعيداً عنه،

استدعى موظفه المخلص علي وأمره ان يراقب منى، لا يدعها تبعد عن ناظريه ولو جزء من الثانية، بدءاً من خروجها من منزل أختها حتى عودتها إليه، كل شيء يريده عنها، ماذا تأكل؟ من تواعد؟ كيف تسير؟

كلها أشياء بات يهتم بها ليرى من هو منافسه الجديد.

لبّى علي طلبه بكل سرور، وغادر ليبدأ تنفيذ هذه المهمة التي ليست مستحيلة.

وترك أحمد لوحده في مكتبه يفكر بها، هي فقط من سلبت عقله من جديد.

***

هي ليست بمزاج جيد الآن يمكنها من الحديث مع أختها، لذلك اعتكفت في غرفتها، حبست رأسها في راحة يديها تفكر بمجريات الأحداث، كانت الأحداث في ذهنها تتسارع بشكل عجيب، ولكن إلى أين ستصل هذه الأحداث، كفّة من سترجح في النهاية، فارسها ... مالك ... أحمد ... في النهاية هناك من سيفوز ولكن متى؟ ومن؟ هي أسئلة دوما تحتارها منى؟ لسبب بسيط أنها لا تعرف أجوبتها.

قطعت هبا خلوتها وراحت تتأملها وكأنها ستفارقها، وهي كذلك حتماً، فها هي هبا تأتيها بأخبارٍ جد سيئة. تدخل غرفتها دون أن تدقّ الباب وتدلف بهدوء مصطنع وتجلس قبالة منى و هي مندهشة لاقتحامها غرفتها الصغيرة.

- والدنا يريد منك العودة إلى المنزل، لا يريد منك البقاء خارجه أكثر من ذلك، غداً سيأتي لاصطحابك، جهزي نفسك.

نظرت منى إلى هبا متفاجئة من هذا الكلام، لماذا والدها يريدها الآن؟ هل هناك جنازة أخرى، جثمان آخر، عريس جديد، أم أنه أحمد ذاته.

هربت الكلمات من فمها بسهولة كما يهرب فارسها، وانهمرت تلك الدمعة المسكينة ولا تدري في أي أحضان ستنسكب.

صبر عليها والدها قرابة السنتين دون أن يجبرها على العودة إلى دياره، لماذا الآن بالتحديد يطلبها لتعود إليه. هو يأمر وهي ما عليها إلا الإطاعة رغماً عنها، فهذا أمر لا مفر منه، ربما سيجلب لها سكيناً أخرى لتشرع بذبح ما تبقى منها وهي راضية مرضية، ليتراقصون كما يحلو لهم على جراحها النازفة.

ربتت هبا على شعرها بحنان فارسها، وضمتها بقوة وكأن لسان حالها يقول أنا معك لن أتركك. ولكن في ذروة الشدّة الكل سيتخلّى عنها بمن فيهم فارسها.

- لن يجبرك هذه المرة على شيء يا منى، ثقي به هذه المرة فقط، فهو بمنأى عن زواج فاشل جديد. ربما هو نادم على ما فعله بك، لذلك هذه المرة أحب اصطحابك بنفسه من هنا.

خرجت لتترك منى تكتب لفارسها ما تشاء من كلام محبوس في صدرها، فوحده من يسمعها دون أن يسكتها.

سأترك هذه الغرفة يا فارسي... سأترك أجمل أيام عشتها معك على هذا السرير، ستصبح مجرّد ذكرى لا تنتسى.

لا أدري إن كنت سأراك هناك مجددّا، لا إدري إن كنت ستعرف عنواني وتأتي إلي في أحلام مجهولة المعالم.

هناك حيث الوحدة، لا أصدقاء لي ، أتقبل أن تكون صديقي؟؟

لا تهجرني فأنا أرجوك. إن كنت هنا أو هناك قلبي لن يدقّ إلا لك، لك وحدك.

ولكن كيف أخبر أبي عن صورتك التي رسمتها ذات شتاء بعد أن رأيتك واضحاً جلياً.

اعذرني يا فارسي ربما سأخبئها لقدرٍ يجمعنا، وربما سأمزقها لأشلاء صغيرة كي لا يراك أحد ويغرم بك، فأنا أغار جداً على من أعطيته قلبي.

أحلامك سأحتفظ بها في قلبي أنا، فلن أجاهر بحبك، لأنهم لن يصدقوا حكايتنا وسيعتبرونها ضرباً من ضروب الأساطير، أو حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة،

إن كنت واقعاً فسأخفيك عنهم، فكيف وأنت لا تظهر سوى في أحلامٍ غريبة بعض الشيء.

سيجبرني أبي ذات يوم على سجن صغير، سيكون بارداً كالثلج طالما لا توجد نفحة من أنفاسك فيه. لن يكون بمقدوري أن أصرخ حينها، ولن أهرب إليك.

اعذرني يا فارسي طال انتظاري كثيراً ولم أراك إلا في أحلامٍ تختارها أنت، لترتع بها كما يحلو لك، وكأني حجر شطرنج في يدك تحرّكه كما تشاء وترغب.

opelikan.com

أريد أن أرى ابتسامتك الحقيقة، دفء عينيك ، دفء أحضانك، همساتك، قبلاتك، يداك الدافئة وهي تحتضنني، أو حينما تربت على شعري، كلّها كنت أحسّ فيها، ولكني لا أتلمّسها، لذلك أريدك واقعاً كي أختبر مشاعري نحوك.

أريدك أميراً في حكاية من حكاياتي الواقعية.

سامحني يا سيدي لأن الأيام القادمة ستكون متعبة بحق، ولن يتسنى لي ربما أن أكتبك حتى.

ذهبت إلى نومها باكراً، لم تكن تفكر به في هذه اللحظة، لأن قلمها اختصر كل شيء في رسالة حب واحدة.

نامت سريعاً بعد أن قررت أن لا تحمل هماً، ولتدع المجال للحياة لتعبث بها كيفما تشاء، استطاعت أن تصرخ في وجه الحياة من جديد، فلتلعب بها الحياة كما رغبت، لن تصرخ هذه المرة، لن تبكي، بل ستبتسم وربما ستضحك، ستضحك برغم المحن، فهي لا تملك حلاً آخر، لن تلويها أوجاع الحياة، لم تعد صغيرة لتنتحب على كل شيء، نامت بعد أن رضخت لأمر واقعها متناسية حبيباً يزورها في الأحلام.

obeikan.com

استيقظت على رنين المنبه اللعين على الطاولة بجانبها، أطفأته ونهضت كعادتها متمنية النوم أكثر لعلّها تحظى بدقائق معه. ربما تكون الدقيقة الأخيرة هي موعد اللقاء.

خرجت من المنزل واضعة يديها في جيب سترتها، تسير ببطء شديد، ومع ذلك لم تلحظ علي وهو يتبعها.

دلفت إلى الفندق منتظراً إياها خارج الفندق. بابتسامة كسيرة دخلت، ووجه أجبرته على الانشراح قليلاً لتتعامل مع الزبائن بكل لطف وأدب.

كان يومها يسير ببطء شديد، حمدت ربها انه انتهى بهدوء دون أن يقتحم أحد حياتها كما العادة.

خرجت من الفندق وبدأت تسير على مهل وكأنها على موعد مع الموت، تنظر أمامها وكأنها تبحث عن شيء سقط منها، تبحث عن حياة جديدة لتعيشها، عن حب ولد في أحلامها ولا يمكنه ان يموت في أحلامها، عن حبٍ لم يولد بعد ولكن شاء له أن يموت، هي لا ترغب بموته، تريد ان تحييه لتحيى به.

obeikan.com

نظرت يمنة ويسرى، هل هي تبحث عنه؟ هل تبحث عن طيف في اللاوجود؟ ماذا ستخبر الناس عنه؟ أبحث عن حبيب من طيف هو خلق، ربما ملاك، أو من ملوك الجان.

يزورها في الأحلام كل مساء كاللص المتخفي خوفاً من انفضاح أمره، وكعادة تلك الدمعة البائسة التي باتت أكثر حزناً من صاحبتها، سقطت لتختفي في العدم كما فارسها.

كلما حاولت ان تصرخ بأنها أصبحت أكثر قوة من ذي قبل، تعود الدمعة تنسكب لتفند إدعاءاتها الكاذبة.

هي تعتقد بأنها قوية، لكن قلبها ما زالت الهشاشة تأكله، مسحت الدمعة البائسة بكل غلٍ وحقد، ورسمت ابتسامة واسعة كقرص الشمس، يجب أن تبق الطرف الأقوى في كل معادلة تنصب لأجلها، لن يجرؤ أحد على كسر ابتسامتها.

***

obeikan.com

وجدت والدها في انتظارها حين دلفت إلى المنزل، ما يزال قاسياً صلباً كما عرفته، شامخاً كالنسر، ابتسامته منذ عقد من الزمن مغيبة، لا ترى في قسمات وجهه سوى تجاعيد الزمن.

رحبت به بفتور، حين رحب بها بعناق أبوي حار، ربما يحاول استدراجها إلى المنزل ليفعل بها كما يشاء، ويزوّجها لمن يشاء، لم تعطه الفرصة لفتح أي حوار، استأذنته على الفور لتوضّب ملابسها.

صعدت إلى غرفتها وبدأت بترتيب ملابسها في الحقيبة بكل هدوء، حين فرغت من ذلك جلست على طاولتها، وأخرجت الدفتر من مكانه السري وبدأت تقرأ حبيبها، كأنها تعيش الحب من جديد، كيف لا وفي كل سطر تراه، هو قال لها اكتبيني لتعيشي بي، لم تكن تدري بأن الحب سيغدو أجمل حين تكتبه، أيهما أجمل حب تحلم به أم حب تكتبه أم حب تعيشه، كانت منى مخيرة بين الخيارات الثلاث، حلمت به فكتبته، أما آن له أن يصير واقعاً لتعيشه.

استطاعت منى أن تعيش الحب في سطور، يتنفس هواء حبرها، ويقتات على الكلمات، بطلها كان فارساً مقداماً لكن دون جواد، سخياً معطاء في الحب. أنّ يتسنى لها حبيباً كهذا في واقع سيطرت عليه شهوة الجنس والمال والنفوذ. ضمّت دفترها إلى صدرها وكأنها تضمّه هو، استنشقت

عطره النفاذ الظاهر من بين الكلمات، ووضعته بكل حنان بين طيّات ملابسها، لتخبئه عن عيونٍ لا تضمر لها سوى الشر.

انتزعت صورته من على الحائط ضمتها... قبلتها وكأنها تتنفس وكأنها تطالبها بالمزيد من الأحضان والقبلات. كيف لا وعينيه اللتين في اللوحة لا تنطقان سوى بالحب. لكن الواقع فرض نفسه عليها فرضاً، ويجب أن تنحني له إجلالاً. قبّلتها قبلة وداع أخيرة ومزقتها إرباً. وفي لمح البصر صارت أشلاءاً، رمتها في سلّة المهملات دون وعي منها.

وقفت لتودّع وجهها الذي طالما لمحته في هذه المرآة الصلبة، ربما لتودّع منى قديمة وتستقبل منى جديدة.

بماذا أحدّثك أيتها المرآة؟

أأحدثك عن امرأة مطلّقة، نبذها المجتمع لأنها كانت جريئة في اتخاذها خطوة يتمنّى معظم النساء اجتيازها لكن قوانين مجتمعنا ظالمة، اعتبروها عارُ عليها ويجب الخلاص منها أو التشهير بسمعتها.

أأحدّثك عن امرأة تزوجت بعقد تجاري مثبّت مع العقد الشرعي، دون ان تكتمل الثامنة عشر من عمرها، وحين فشلت المصالح التجارية فشل الزواج الشرعي.

أأحدثك عن مطلّقة لا يراها الذكور سوى متعة لهم، يتراكضون إليها وكأنها تغويهم وتناديهم هيت لكم.

أأحدّثك عن مطلقة تخشينها النساء وتخشين على أزواجهن منها، يتهامسون فيما بينهم وكأنها لا تسمع ولا ترى... تلك التي باتت تخبئ زوجها مني خوفاً علي من سرقتي إياه، وتلك التي لا تتحدث عن زواجها أمامي خشية من حسدي إياها، وتلك العجوز الهرمة التي تخبئ بناتها عني خشية إفساد تربيتهم، وهؤلاء النسوة الجالسات على قارعة الطريق، يتناولن المكسّرات ويرمين قشورهن في الشارع أمام المارّة، يتغامزن حين يلمحنني وقد تأخرت عن بيتي خمس دقائق، فيبدأ الكلام، ونهش عرضي كما يحلو لهن.

تنهدت بعمق الألم الذي يجتاحها.

وهل لأني لم أرض عيشة الذل والهوان يصبح وأدي سهلاً إلى هذه الدرجة.

دقّ والدها باب الغرفة لاستعجالها، نسيت في خضم همومها والدها في انتظارها تحت.

خرجت إليه بخطوات متثاقلة وكأنه تزفّ للموت من جديد، حمل عنها حقيبتها السوداء الثقيلة، وودّعت أختها التي كانت في انتظارها في الأسفل، عانقتها عناق مطوّل، وكأنها لا ترغب في الرحيل عنها إطلاقاً، فهي قطعة منها ورحيلها عنها كمن يرحل عن جسده، ولكن الرحيل هو الرحيل.

ركبت في السيّارة جوار والدها، لماذا السيّارة تسير في بطء شديد؟ أهي تتضامن مع منى في عذاباتها المستقبلية.

وصلت أخيراً إلى منزل طفولتها، وها هي تعود إليه بعد أربع سنوات من الغياب، وجدت والدتها في انتظارها عند الباب، عانقا بعضهما بشدّة وأدخلتها للمنزل ويداهما متشابكتين، لم يتغيّر شيء في البيت، حتى الورود الاصطناعية ما زالت في مكانها، وذلك البلبل كعادته يغرّد دوما حين ينفتح الباب. أحضر والدها شاشة تلفاز جديدة بدلاً من القديمة، أما ما تبقى من أشياء في البيت ظلّت ثابتة في مكانها.

أجلستها والدتها بجوارها أمام النافذة تتحدّثان في أمور شتى، وجدت عائلتها تحتويها من جديد، إذاً لن تكون عاراً عليهم كما يحتسبون، لن يظلموها مرة أخرى، لن تكون منبوذة ولن يتم وأدها، لن تساق إلى سجنٍ آخر.

كسر والدها شرودها حين سألها عن عملها في الفندق إذا كانت سعيدة أم لا، إن كانت هناك من مضايقات لها أم لا،

فأجابته بسعادتها هناك مع طاقم الموظفين.

أملى عليها نصائح جمة عن كيفية تعاملها مع الموظفين وكيفية صنع حواجز بينها وبينهم كي لا يطمعوا بها وكأنها المرأة الوحيدة التي على الأرض ليعجب بها كل رجلٍ يراها، ولكنها كانت تكتفي بهز رأسها بين الفينة والأخرى علامة على أنها موافقة لكل ماتفوّه به.

ولكنه فاجأها حين سألها عن أحمد إن كانت تراه في الفندق أم خارج الفندق، أجابته باختصار بأنها لمحته عدّة مرات.

ولكن ما الدافع من سؤالها عن أحمد؟ هل هو يخطط لمذبحة أخرى بحقّها؟

هل يمكن أن يكون أحمد قد أخبر والدها عن حبيبها السري، لذلك قام هذا الأخير بإحضارها إلى هنا كي لا تدنّس شرف عائلته، أم لأنه يحاول إعادتها إلى أحمد قبل أن يخطفها آخر.

فاجأها أكثر حين بدأ يمدح أحمد أمامها وكأنه ملاك بريء، يمتدح خصاله الجيدة التي لم تراها منى وهي في بيته، كيف ظهرت هذه المحاسن كلّها.

قالها والدها بصراحة بأن أحمد ما زال طالباً يدها ويريد إعادتها إليه.

انتفضت منى من سماع تلك الكلمات، فاستأذنت بارتباك ملحوظ لتدخل غرفتها مسرعة من تيار عاصف يجرفها.

أوصدت باب غرفتها جيداً كي لا يقتحم أحد حياتها من جديد، مشاعرها بدأت بالتضارب حين دخلتها ما بين ذكريات قديمة تدرك مسبقاً أنها ستحنُ إليها وما بين مستقبل مجهول المعالم.

على سريرها ذي الفراش الوثير جلست لتصفّي ذهنها قليلاً، ما أجمل ملمسه الناعم وعادت بها الذاكرة سنين إلى الوراء حتى قبل أن تشيّع إلى أحمد، هنا لا توجد مرآة كبيرة كما في تلك الغرفة، هنا خزانة

متوسّطة الحجم، ولكن في بابها من الداخل مرآة بحجم ذلك الباب، باستطاعتها أن تتحدّث إلى منى وقتما تشاء وكيفما تشاء ومتى تشاء، أخرجت دفترها من حقيبتها السوداء وضمته إلى صدرها كما لو كان وليدها وقد غاب عنها سنينا، وجلست على طاولتها لكتب له.

أيا فارساً أشتاق له قلبي كما اشتاقت له عيناي.

أتدري الآن يا صديقي بأني أكتب إليك وأنا في غرفتي ذو الأثاث القديم، عدت إليها بعد أربع سنوات من الهجر، وكأني لم أغب عنها بتاتاً.

غرفتي يا فارسي صغيرة الحجم، جدرانها متآكلة بفعل الرطوبة النفاذة إليها، لها نافذة صغيرة دائرية مكسورة من جانبها الأيمن' مما يسهّل على الرياح الباردة العبث بغرفتي كما تشاء، والشمس يا أميري ترفض كل الرفض الدخول إلى غرفتي وكأنها في خصام تام معي، بفضل ذلك البناء الأبيض الضخم مما يحجب عني شروقها ودفئها' فلا استمتع لا بغروبها ولا بشروقها.

أثاث غرفتي يا فارسي بسيطٌ جدّاً، يجلس في وسطها سرير خشبي ذو غطاء وردي مزينٌ بزهرات من الياسمين والفل الناصع البياض، ووسادته ذات الشيء أيضاً، وفي الجانب خزانة سوداء متوسطة الحجم

ذو خشب صلب قليلاً، وعليها صور عدّة لسندريلا وفارسها الشجاع، ولم انس يا فارسي هذه الطاولة الخشبية الصغيرة وعليها بعض الكتب ذو الطابع الديني، لم تكن هذه الكتب متواجدة من قبل هنا، ربما وضعهم والدي هنا ليقوّم إعوجاجي كي لا أنفلت من بين أصابعه، وهذا المقعد الخشبي الجالسة عليه الآن مهترء بعض الشيء، لا تخف يا فارسي لن أسقط من عليه فأنا خفيفة الوزن وصغيرة بعض الشيء، هذه غرفتي المتواضعة.

أيرضيك يا فارسي هذا؟ أتعجبك غرفة بهذه المواصفات؟

هل ترغب بزيارتي بعد أن شرحت لك بتفصيلٍ ممل كيف سأقضي أيامي القادمة فيها؟

أرجوك لا تغب عني كثيراً، كن مؤنساً لي في غرفتي هذه، فبدونك لا أصدقاء لي.

قررت منى الاعتكاف في غرفتها لتجعلها سجناً جديداً لها.

وها هي عادت لتأسر نفسها مجدّداً، لم يتغيّر عليها شيءٌ سوى جدران متآكلة.

لا تريد الدخول في نقاشات مع أي أحد، لا تريد سوى الاختلاء بنفسها لتعيش حبّا عظيماً غير مرئي لأي أحد.

باتت نظراتهم لها ترعبها وكأنهم يتحدّثون عن منفى جديدٍ لها.

***

اكتظّ البيت بالأهل والأقارب من النسوة اللواتي حضرن لزيارة منى بعد غياب سنين، نادت عليهن والدتها لتجلس معهن فتتبادل النفاق الاجتماعي قليلاً.

هذه المرة لم ترتدي فستانها الوردي بل ارتدت فستاناً أسود قصيراً، وزينت شعرها بشريطة سوداء، ولم تضع أي شيء من مساحيق التجميل، وكأنها مرغمة على مجالستهن، فظهرت لهن كحورية من حواري الجنة خرجت.

نزلت بكل ثقة إليهن، صافحتهن الواحدة تلو الأخرى بابتسامة مصطنعة رسمتها على وجهها مرغمة، وجلست بجوارهن ليتناولن أحاديث عامة، لم تشأ أية واحدة منهن أن تفتح لمنى أي حديث يخصّها، لكن نظرات الشفقة التي بانت عليهن لم يستطعن أين يخبئنها، فاستاءت منى من تلك

النظرات، لم تحتمل النظرات التي تراقبها بكل حزن وكأنها خارجة للتو من مصيبة عظيمة.

هربت من نظراتهن لتتنصل منهن فتجد نفسها في حجرتها الضيقة، أغلقت بابها وكأنها تحررت منهن، كانت منى تحاول قدر المستطاع ألا تحتك بأحد بسبب عاداتهن البالية التي رسخها مجتمعها وزرعها في عقول النساء والرجال الجاهلون.

سمعت أخيراً إغلاق باب المنزل، لتتنهد بعمق فرحة لمغادرتهن سريعاً، لكن سرعان ما جاءت والدتها لتعاتبها على هروبها منهن وهذا ما يسمى في أعرافهن بقلّة الذوق، لم تجبها منى لأنها تعرف تمام المعرفة أن جوابها لن يرضي والدتها على أي حال، أخبرتها والدتها كم تتمنى هي ووالدها أن يروها عروساً من جديد ليطمئنا عليها قبل أن يباغتهم الموت فتبقى وحيدة دون سند تستند عليه.

هي تدري أن والديها على حقّ في ذلك، فأي أهل يتمنيا لابنتهما الاستقرار ليرتاحا من عبئ يثقل كاهلهما، فالمرأة كما يعتقدون ليس لها مفر من بيت زوجها.

ولكن ما ذنبها إن كانا اختارا لها بيتاً من زجاج سرعان ما انكسر، ألا يجدر بها أن تختار الآن بيتاً من حديد صلب يقاوم جميع الكوارث ويبقى صلباً قاسياً،

عادت أمها لتخبرها عن عرس لإحدى قريباتها ويجب أن تحضر الحفلة رغماً عنها فربما هناك من يراها ويعجب بها، ففي سجنها هذا ستظل كما هي ولن يراها أحد، لم ترغب منى بذلك، لن تكون سلعة مرة أخرى، لكن أهلها لم يفهموا بعد بأن منى كائن ولها الحق في الاختيار، هي ليست بضاعة فاسدة يرمونها لأول عابر سبيل.

قاومت منى عناد أهلها، بكت قدر المستطاع، توسّلت إليهم أن يتركوها وشأنها، ففي كل ساعة يكون هذا الموضوع شغل أهلها الشاغل، وكأنها حين تتزوج ستنقذ البشرية من ضياع محتّم.

***

كان عملها قريباً من منزلها مما سهّل عليها الذهاب إليه سيراً على أقدامها، لم تكن تنظر إلا على وقع أقدامها، فهي تعبت من هذه الحياة لا تريد شيئاً سوى تركها تنعم بسلام دون أن تفكر في شيءٍ البتة، حتى

فارسها خاب ظنّها به ولم تعد تريده، فهو ماهر بلعبة الغميضة وهي لا تجيدها، هو ماهر بلعبة الفوازير وهي ليست بمستوى ذكاءه.

ومالك ذلك الشاب المتواضع التي تختفي كلما لمحته كي لا تلمح نظرات الشوق في عينيه.

وأحمد المغرور ذو الكبرياء الحاد، الذي وإن أتاها راكعاً لن تعطيه قلبها مجدّداً وإن ارغمت على العودة إليه ستهرب منه ألف مرة وربما آلاف المرات.

دلفت إلى بهو الفندق وابتسامة رضا تعلو شفتيها، راضية هي عن الحياة تقاسيها فتبتسم لكل خيبة آلاف البسمات،

وراء حاسوبها جلست تعمل بكل جدّ ونشاط على أنغام فيروز الصباحية وفنجان قهوة يذوب بين يديها حين ترتشف منه.

رآها بعد شوق أيام وربما أسابيع، لاحت على شفتيه ابتسامة محب، تأمّلها ليحفظ قسمات وجهها قبل أن يجلس بجوارها كعادته الجريئة، أحسّت بأنفاس الشوق اللاهبة تكاد تحرقها، هي لا تعرف متى عاد ولا يهمها أن تعرف، ربما يأس من محاولاته المتكررة لاستمالتها، لكن

صدق أنفاسه الصاعدة كذّبت ادعاءاتها، نظرت إليه بصمت لتلمح فرحة لم ترها من قبل وكأن ابتسامته تلك تنطق بالشوق، لمحت الهيام في نظراته وكأن عيونه نسر جارح تريد اختراقها.

- الحمد لله على سلامتك ... قالتها بخجل مطأطئة الرأس.
- شكراً، وأنتِ لماذا الحزن ما زال في عينيك مرسوم.

ابتسمت ليسقط قلبه ولهاً على جمال ابتسامتها، لله درّها ما أروعها.

- أنا لست بخير... متعب بحجم السماء، وبي من الهموم ما يفتك بي ويشد علي وحدتي وضيقي.
- مما تشكو لعلي أساعدك على تخفيف تلك الجراح.
- هل أنت جادة في ذلك وبإمكانك تخفيف الآلام عني، وأنت تعلمين بأن كل الآهات التي تصرخ في قلبي سببها أنت.

تلعثمت وارتبكت، احمرّت وجنتاها خجلاً، طأطأت رأسها من جديد لمدّة خمس ثواني، لترفع ناظريها إليه مجدّداً، وكأن عينيها تريد البوح له بما يختلج صدرها لعلّها تخفف أعباء تثقل كاهلها، وبصوت هادئ يشوبه الحزن:

- أدري ذلك يا صديقي، وأعرف جيداً تلك الأحزان التي تجتاحك وسببها أنا، أنا من أوجد تلك الآلام في فؤادك، ولكني يا صديقي لم أعدك بشيء، وتعلم بأني كنت أتهرّب منك لتفهم بأن قلبي ليس لك، فهناك من خطفه قبلك، ولا أستطيع السير معك في درب حبك، لأن هناك من يسيّرني رغماً عني في دروب حبّه الكثيرة، قلبي يشكو الحب لغيرك، سأخونك إذا كنت معه، وسأخونه إن كنت معك.

ترقرت الدمعة في عينيه وهو ينظر إلى عينيها العسليتين، وقال لها بصوت يشبه الهمس:

- هل أعرفه؟ هل عدت إلى من كان سبب حزنك، أم هناك آخر؟ هل هو منافس شريف، أحاول فربما أستطيع الفوز بك وربح قلبك من جديد،
- صدقني لا تعرفه، حتى أنا لم أره من قبل، ولكني على ثقة بأنني سأجتمع به ذات شتاء، أو ربما ذات صيف.
- هل هي فزورة؟ كيف ملك قلبك ولا تعرفينه؟

- نعم ... هو فارسي، خلق من العدم، من اللاوجود، في أحلام عابرة اجتمعنا، لنرسم الحب سويّاً، ونصنع لنفسنا فضاءات لا متناهية من الآمال.
- فارس .. أحلام .. طيف .. أوهام .. هل تعشقين شخصاً رأيته في الأحلام، هل بنيت حياة واقعية على طيف؟ هل ستنجبين أطفالاً في الأحلام أيضاً؟ هل ما تفوهت به الآن حقيقة أم نسج من خيال.

اغرورقت عيناها بالدموع، لأنه لا يوجد أحد على استعداد لفهم مشاعرها.

عبّرت عن أحلامها لمالك فربما يفهمها لأنه يعيش الحب مثلها، لكنها اختارت أن تغرس السكين في القلب الخطأ.

مسح مالك دمعتيها فهو وإن رفض الآن من قبلها يبقى مالكاً الذي تؤلمه تلك العينان حين تغشاهما الدموع، مع أن دموعها وهي تبكي كأنهما نهر من عسلٍ طيب المذاق، كانت عيناه تريد التهامها والعوم في ذلك العسل، كانت تلك العيون تهيم بعيناها، كان يرغب في ضمّها ليبكيا سوية على صدور بعضهم البعض، لكنه استعاد رباطة جأشه أخيراً.

سأبقى على عهد حبك، إلى أن تلتقي بنصفك الآخر، حتى وإن كان طيفاً. سأبقى بجانبك كما تحبين، صديقاً .. أخاً .. أبا .. وربما يسعفنا الحظ أن أكون حبيباً. سأنتظرك وسأفتح ذراعي لك إن جئت إلي يوماً فاتحة قلبك لي.

- شكراً لك يا صديق لعدم خذلانك لي .. شكراً لاستماعك إلى مشاعري .. شكراً لوقوفك معي .. على حبّك لي .. شكراً يا صديق.

ابتسمت تلك الابتسامة الجذابة، وابتسم هو بدوره لجمال ابتسامتها.

هرب من أمامها قبل أن تلحظ دمعته التي كسرت كبرياءه والذي جاهد مطوّلاً على إخفاءها إلا أنه لم يفلح. نظر إليها من بعيد فرآها سعيدة فرحل.

هي تدري أنها أوجعت قلبه، كم كانت قاسية عليه، هي تدري ما هو الحب الآن، وتدري بأن مالك أحبّها حقّاً، ولكن ما ذنبها هي إن جاءها في زمن خاطئ، ما ذنبها إن نادت للحب كثيراً ولم يسمع نداءاتها سوى فارسها المغرور، ما ذنبها هي إذا جاءها بعد أن دق الحبّ قلبها وهامت به.

تعلم أنها أذابت قلبه، وأخرست أوجاعه، ولكن لا بد لها أن تهرب منه بأية وسيلة حتى لو غرست سكينا ذات نصل حاد في فؤاده المتيّم بها.

هذه أول مرة منى تؤلم أحداً إلى هذه الدرجة.

تأوّهت بعمق .. زفرت .. أخرجت ما في قلبها أخيراً، ولكن لمن ؟؟ لأكثر من هام بها، لأكثر من فتن بها، لأكثر شخص تؤلمه آلامها وهي من كانت سبب آلامه في هذه اللحظة.

شردت كثيراً حتى أخطأت في حسابات الزبائن، وبدأت تعتذر لهذا وذاك، لتلك العجوز، وللصبي الصغير، كان يجب ان تصفّي ذهنها، لا أن تعمل وهي في حالة الفوضى هذه.

***

خرجت من الفندق وكعادتها في السير عيناها مثبتتان دائما إلى مواقع قدميها، وكأنها تبحث عن ذاتها على الرصيف بين أوراق الشجر المتساقطة هنا وهناك.

أحسّت أن العيون جميعها تريد التهامها وكأنها على خطيئة ما.

سمعت كلام غزل من شباب مراهقين طائشين، التقت عيناها بعيني الرجال الطامعين فيها، فهرولت إلى الحافلة هرباً من تلك العيون.

دلفت إلى البيت دون أن يلمحها أحد فهي بالذات هذا اليوم لا تريد فتح أي باب نقاش، ودخلت سجنها أخيراً لتغلقه على نفسها بألف مفتاح، فها هي الآن أصبحت بمأمن عن كل ما يحيط بها من شر.

حاولت ان تتصل بمالك لأنها أوجعت قلبه، ما كان لها أن تتحدث عن حبيبها لمالك وهو الذي كان لها حبيب.

هي ارتاحت لمالك كثيراً، كأنها كانت تتحدّث إلى مرآتها فباحت بما يعتلي قلبها، سراً دفنته سنيناً ليخرج وينفجر بوجه مالك الحبيب المتيّم.

استطاعت أن تلمح عبرات عينيه وهي متّقدة على خديه، وإن حاول جاهداً إخفاءها فهي جرحته فعلاً، جرحت كبرياءه رغماً عنها، ولكنها كانت تريده صديقاً فحسب لا حبيباً.. فهل فهم مالك رسالتها هذه؟؟؟ ...

***

سار مالك على غير هدى، في كل درب يسير فيه يتذكر كلامها وكيف نزل على قلبه كالسم، أيعقل هذا!! أتراها جنّت!! أم تراها لم تجد حلّاً للهروب منه سوى اختراعها لتلك القصة.

جلس على مقعد كبير ذي لون بني في حديقة صغيرة، وتحت ظل شجرة النارنج ورائحتها العطرة بدأ يفكر، كيف استطاعت أن تجرحه بكلماتها عن وهم لا أساس له؟ كيف سمحت لنفسها ان تجرح كبرياؤه؟ كيف نجحت في قتل الفرح منه بهذا البرود؟ كان برودها فظيعاً لم يحتمله، وهو من كان يتّقد كجمرة ملتهبة.

وضع رأسه في يديه، وصرخ صرخة مكتومة، صرخة آه ووجع، فصبراً يا نفسي على البلوى، فصبراً يا مالك على حبّ ضاع منك قبل أن ينمو. ومن سرقه في النهاية؟ طيف .. وهم .. سراب زائل .. لماذا لم تكن المنافسة عادلة؟ كيف لطيف أن ينافسه، كيف له أن يراه فيخبره بمدى عشقه لمنى؟ كيف يخبره عن غرامه الذي أسره لحظة دخولها بهو الفندق؟ كيف له أن يخبره بسعادته حين يسبح في عسل عينيها؟ لم ينتبه لتلك الدمعة التي هوت إلى العاق فلامست آلاماً في قلبه الهش.

هل هي تعشقه إلى هذا الحد؟ هل تعشق طيف؟ وتخاف من الوقوع في حبي كي لا تخونني مع طيف.

كان يحدّث نفسه والأفكار تتصارع في ذهنه رافضة الانصياع له للخروج من رأسه كي يهنأ بسلام، لا يجب أن يفكّر بها، هكذا حدّثته نفسه حين صرخ بأعلى صوته بأنه يحبّها فكان الرد صاعقاً إنها ليست من حقّه، ولكنه يجب إنقاذها من وهم مسيطر عليها، لا يجب أن يدعها تغرق في أوهام خلقتها لنفسها. هي ما زالت صغيرة وتائهة تبحث عن تلك اليد التي ستنتشلها من ضياع محتّم. من ذلك السرداب المظلم سيمدّ يده لينتشلها، فستدرك حينها أن لا حبيباً لها سواه. لا يوجد أطياف هنا، لا أحد يصدّق هكذا كذبة.

وقف منتشياً وعلى فمه لاحت ابتسامة سيساعدها على التخلّص من ذاك الطيف بحبّه أكثر وأكثر لها.

هذا يعني أن مالك لم يفهم بعد رسالة منى جيداً.

بعث لها برسالة يطمئنها أنه سيبقى بجانبها دائماً وأبداً، ابتسمت حين قرأت رسالته وقد ظنّت أنه فهمها وفهم حبها الغريب هذا، بعثت له بكلمة شكر واحدة فقط، ابتسم ابتسامة سخرية كمن يسخر من جراحه العميقة، كان جوابها جدّ مختصر، فهي إلى الآن لم تدرك الطعنة القاتلة التي وجّهتها له، كانت كلمة الشكر هذه كافية لتتدفق عبراته كشلال غزير. أدرك الآن أنه خسرها.

كان ذلك الفستان القصير ذي الدانتيل المموج يلتهم جسدها حين ارتدته فظهرت كواحدة من أميرات ديزني، لم تنس أن تضع القليل من مساحيق التجميل لتبدو كعادتها أنيقة وسر أناقتها تنبع من جمال ابتسامتها، وتزينت بقليل من الحليّ فأعطاها رونقاً خاصاً، وأسدلت شعرها على كتفيها وأرخته كالشلال المتموّج. جهّزت نفسها مرغمة لحضور حفل زفاف إحدى قريباتها، وهي التي تكره أجواء الاحتفالات خاصة بعد طلاقها، لكن والدتها أجبرتها على ذلك وكأنها تريد أن تعرضها للملأ كي لا تبور.

كانت الأعين تحملق فيها حين دخلت القاعة المزخرفة، بدأت عيناها تبحثان عن طاولة جانبية كي لا تجلس بجوار أية واحدة من النساء الحشريات، لكن لسوء حظّها كانت جميع الطاولات محجوزة مما اضطرّها مرغمة أن تجلس على واحدة في منتصف القاعة.

لاحظت الأعين وهي تحدّق بها، لم تلمح سوى عيون ثاقبة تتجمهر حولها من كل حدب وصوب، وكأنها من كوكب آخر جاءت، أو ترتدي زيّ لحفلة تنكرية. وما إن أخفضت بصرها قليلاً حتى سمعتهن يتهامسن وأنظارهن تريد التهامها.

قالت امرأة طلت وجهه بالكثير من مساحيق التجميل (انظروا إلى هذه المرأة طلقها زوجها من سنتين ونصف وهي الآن في بيت أهلها).

في حين قالت الأخرى (سمعت عنها فهي لم تكمل بعد عامها الثاني في بيته، ولم تنجب منه).

قالت الثالثة بعد أن وضعت رجلٍ على رجل (ربما سبب طلاقها كان ذلك، فأي رجلٍ يحلم بأولاد له يحملون اسمه).

عادت لتقول الأولى (لقد طلقها لأنها عنيدة ولا تسمع كلامه).

مازالت تلك واضعة رجل على رجل في غرور (ربما رآها مع غيره فثارت غيرته وطلقها لهذا السبب، فواحدة مثل هذه لا يهمها إن خرجت مع زوجها أو غير زوجها).

كنّ ينهشّن عرضها وهي صامتة تكاد النار تأكلها من شدّة الغيظ. وحين بدأ الحفل سمعت همساً جديداً من طاولة أبعد قليلاً.

إنها مسكينة لا تزال صغيرة ليحدث معها هذا.

- زوجها ما زال يرغب بها، ولكنها يا لطيف هي لا ترغب به، تريد أن تبق حرّة طليقة لا يردّها رجل، حتى أنها استقرّت عند أختها حين حصل الطلاق، ومن فترة قريبة أرجعها والدها إلى البيت عنوة.
- من سيرغب بها بعد هروبها من بيت زوجها وطلاقها منه، وهروبها من منزل أهلها. يا رب سترك علينا.

كفكفت دموعها السخية في حين كان العريس يراقص عروسته بشغف عاشق على مرأى من كان بالحفل، عادت بها الذاكرة إلى يوم زفافها وأحمد يراقصها وعيناه تكاد تلتهمها، تذكرت تلك الحفلة التي كان كل من بها مبتهجاً ما عداها، كانت صغيرة حينها ولم تفهم شيئاً بعد، كان الكل يرقص ويغنّي في جنازتها، يشيّعونها إلى مثواها اللانهائي، وهم يتمايلون على إيقاع الأغاني وكأنهم السكارى. كان الكل يبارك لها ويدعو بالسعادة لأيامها القادمة. ومن كان هذا الشاب الجالس بجوارها ويدها في يده مرغمة وكأنه يمسكها بإحكام كي لا تفلت منه، كان غريباً ثم خطيباً ثم زوجاً ثم غريباً عاد يطلبها من جديد، ليسير على نفس النهج، وتعود الحلقة بالدوران من جديد.

استيقظت من ذكراها الأليمة على يد خالتها تسحبها للرقص مع الفتيات الأخريات، سحبت يدها عنوة منها لقد ذكرتها بنفسها التي كانت ترقص بفرح في يوم دفنها، وها هي تعود مجددّاً لتجرّها إلى مسلخٍ جديد، رفضت الإذعان لطلبها بتوتر بادٍ على ملامحها مما اضطر هذه الأخيرة لمغادرة الطاولة.

لاحت ابتسامة على شفتيها فقط لأنها تذكّرت فارسها وهو يراقصها في أحلامها، ومن يدري ربما سيراقصها في واقع هي متأكّدة أنه سينشأه لها ومن أجلها.

***

انتهى العرس بعد أن كاد صبرها ينفذ من تلميحات النسوة عليها، ورحل العريس مع عروسه حيث الحب والسعادة والهناء. ورحلت منى إلى بيتها حيث الأحلام والوحدة والآلام بانتظارها.

دخلت غرفتها لتكتبه بعد انقطاعٍ دام أشهر، فلم يتسنّى لها الكتابة أبداً، وهو غائب عنها منذ دخولها هذه الغرفة، أعجبته لعبة التخفّي هذه، أو ربّما لم تعجبه مكوثها المطوّل في سجنها البارد هذا.

أكتب إليك يا فارسي ويداي مشتاقة للمس يديك.

أكتب إليك لأن عيناي تفتقدان الليل الأسود في عينيك.

كلي اشتياق لصدى أنفاسك .. لأحضانك .. همساتك .. نظراتك .. للحب الذي جمعنا في ذاك الحلم.

قل لي بربك لماذا تعشق التخفي هكذا؟

لماذا تلعب لعبة الهجر بعد ان تعلّق قلبي بقلبك تهجرني لتختفي في طيّ النسيان.

قلبي ما يزال على عهد حبّك إلى أن نلتقي في واقع يجمعنا سوياً.

كل ما اتمناه منك الآن يا حبيباً دائم الغياب، ألا تعلّق قلبي بك مجدّداً، وألا تترك قلبي عالق بين الأحلام والواقع، فعد إلي ولو بحلم قصير لأعيش أياماً أتغذى على بحر حبّك.

غاص فؤادها بين سطور الوحشة، لم تستطع أن تكمل أكثر من ذلك، لا كلمات توصف حبّها أكثر مما كتبت.

obeikan.com

أتنام الآن فربما جاءها في حلمٍ جديد، ام تظلّ جالسة صامتة تستمع إلى أنين قلبها وهو يناجي الحب من جديد.استسلمت أخيراً ونامت نوماً متقطّعاً، تاركة تلك الدمعة اللئيمة تسرح على خدها وتلعب كيفما تشاء.

حين أشرقت الشمس أجبرتها على فتح عينيها العسلتين لتلمعان كالوهج المتّقد، وهب نسيمها فداعب خصلات شعرها المنسدل على كتفيها كعادتها في النوم.

لم تحلم به مما زاد على خيباتها خيبة جديدة، ولم تحلم بأي شيء أيضاً.

نهضت من سريرها متململة وارتدت ملابسها ببطء وهي مشغولة الفكر. خرجت من منزلها دون أن تلقي تحيّة الصباح على والدتها كي لا تعطيها بعض النصائح الصباحية وهي بغنى عنها الآن، وخاصة في مثل هذه الأوقات حيث يلعب التوتر والقلق بها ما يشاء،

بدأت العمل على حاسوبها بكل هدوء، كانت ترتشف القليل من فنجان قهوتها فظهرت كالملكة المتوّجة على عرشٍ من ذهب.

وحده مالك من لقّبها بذلك وهو ينظر إليها من وراء ذلك الجدار الصغير، خمس دقائق كانت كافية ليشيح وجهه عنها ولكنه لم يحتمل

اعاد النظر إليها مجدّدا وهو يتأمل كل تفاصيل جسدها وكأنه سيغيب عنها دهراً. اقترب منها وهي لم تلمحه بعد لشدة انشغالها بعملها عللى الحاسوب.

- هل فكرت جيداً قبل خوضك لتجربة هي فاشلة قبل أن تبدأ.
- إذا أتاني الحب واقعاً ، برأيك لن أندم؟.
- إذا كنت أنا من فتح لك الحب لن تندمي إطلاقاً.
- ولكن ... لا أريد حبّك .. أفضّل العيش في أحلامي.

هذه المرة الثانية التي تقدم فيها منى على جرح مالك ببرود شديد دون أن ترأف بحاله وهي التي تجرّب الحب الآن لم تهتم لأمر هذا العاشق الولهان، كل همها كان إبعاده عن ساحتها.

نظر إلى عسل عينيها مطوّلاً وكانت عيناه تنطقان بالصدق، لا يريد منها سوى نظرة حبٍ واحدة، ولكن حتى بهذه النظرة بخلت عليه، وتحاشت النظر في عينيه كي لا تغرق في تفاصيلهما، كانت بالفعل قاسية معه، مع من أعطاها الأمان من النظرة الأولى. ولكن ما ذنبها هي إن كان ما حصل معها جعلها تلعن الحب ألف مرة وتتجنبه ألفا مرة. سيجرّها الحب إلى عوالم مجهولة من الدموع والألم، إلى أرق لا يفارقها، ستنعدم

obeikan.com

شهيتها وينحل جسدها، ستصاب بالقلق والشوق إن غاب أو حضر، هذا ما سيحدث إن فتحت القلب لمالك، فربما عبث به كغيره.

وما إن انتهت من شرودها حتى رفعت ناظريها فلم تجد مالك ولا حتى ظلّه. عادت إلى حاسوبها من جديد تفكر في فارسها فلا إرادياً تلألأت صورته في ذهنها وكأنه يقول لها لا فرار منه إلا إليه. نفضت رأسها جيداً لتعاود العمل من جديد، تاركة قصة هيامها للأيام تفعل بها ما تشاء.

***

ضرب أحمد الطاولة بقبضته اليمنى وهو يزفر غضبا، صارخاً في وجه علي ومؤنباً إياه، كيف لم يعثر على أي شيء يدينها به؟، ليهددها به فيما بعد، فتعود إليه خائبة ذليلة كما في السابق.

شهر كامل داوم على مراقبتها ولم يلحظ على سلوكها أي شيء، من بيتها إلى عملها والعكس. وماذا عن حبها المزعوم الذي تحدّثت عنه، أيعقل أن تكون كاذبة.

لوى فمه قليلاً قبل أن يحمل دخانه ومفاتيحه ليضعهما في جيبه ويخرج مسرعاً، ركب سيارته ذات اللون الأسود ومضى ليواجهها بكذبها، كيف

تجرؤ على الكذب عليه؟ لقد أضحت صعبة المراس، أنّ له أن يفهمها، والعناد أصبح طبعاً من طباعها، استطاع لمح الكره من جهتها تطلّان من عينيها، سيرجعها إليه كما كانت قطة أليفة، سيسجنها في قفصه من جديد، سيرفض أن ترى أي مخلوق غيره ليروّضها كما كانت عنده، فهي له قبل أن تكون لغيره.

وكأنها حصة من ذهب يقاتل ليحصل عليها وبعد حصوله عليها يعمل جاهداً على دفنها جيداً، ولكن من يخبره بأن منى إنسانة لها الحق في الحياة.

لم ينزل من سيارته بقي فيها قليلاً يرتب أفكاره المعقّدة إلى أن رآها خارجة لوحدها بزيها الوردي القصير، كم كان يكره هذا الفستان عليها لأنه كان يعطيها جمالاً على جمال فتثير غرائزه، احتقر نفسه لأنه فرّط بها، احتقر نفسه لأنه الآن بالذات لا يحقّ له الصراخ في وجهها ويمنعها من ارتداء الألوان الزاهية، كان يكرهها حين ترتدي هذا اللون لأنه يطبع على خديها اللون الوردي ذاته فتكتسب وجنتاها حمرة طبيعية، فتبدو للناظر كأنها مزيّنة بجميع مساحيق التجميل.

نزل من سيارته وسار باتجاهها كما البرق، أمسكها من ذراعها عنوة وكأنه يخبرها بأنها ستكون له شاءت ذلك أم أبت، تفاجئت منى من

تصرفه الأرعن هذا فما كان منها إلا أنها صرخت في وجهه ليفلت يدها.

- أريد التحدّث إليكِ.
- أتمنى أن توجز، فأنا على عجلة من أمري.
- أخبريني عن هذا الشاب المتيّم بك.
- لا يهم من يكون، المهم أن لا تدخل حياتي أنت مجدّداً.
- من سيأخذك مني، من يجرؤ على ذلك،
- يا لغرورك المتعالي.

أفلتت يدها من قبضة يده، وسارت على غير هدى دون أن تلتف إليه، كان كل همها الخلاص منه. هذه المرّة لمحت الخوف في عينيه مما جعلها في الموقف الأقوى. لم تعد تلك الفتاة الضعيفة البكاءة أبداً.

***

اتصلت بصديقتها وهي مستلقية على السرير تؤرجح قدمها في الهواء، ويدها تداعب خصلات شعرها الكستنائي، أخبرتها بضرورة الإسراع في إيجاد عملٍ جديدٍ لها، فهي لم تعد تطيق العمل هنا في هذا الفندق،

obeikan.com

فمالك وأحمد لن يتركاها تنعم بسلام، إنهما يضغطان عليها، خائفة كل الخوف من ردّة فعل والدها إن هو علم بالأمر، ربما سيسجنها في سجن من اختياره هو، سيعيدها إلى أحمد مكبّلة اليدين ومغمضة العينين كما في سابق عهدها وهذا الخيار لا ترغبه إطلاقاً، أو ربّما سيسجنها في سجن باردٍ إلى أن يأتي مزايداً آخر ويدفع أكثر فما هي إلى ثروة في نظر والدها ذو الطبع المادي الجشع، وحين ييأس من أمرها ربما سيدفعها إلى مالك عنوة ليستر عليها قبل أن تقوم بجلب العار له على حدّ تعبيره.

أخبرتها صديقتها بأنها ستعمل جاهدة على إيجاد عملٍ مريح لها، ارتسمت على شفاهها ابتسامة نصر، هي ستبقى قوية كما أقنعت نفسها من قبل، لن تدع أي أحد يهزمها.

خبئت دفترها كي تصفّي ذهنها من كل التراكمات العالقة به، في هذا الوقت بالذات حتّى فارسها لا ترغب به.

قررت أن تغيّر من حياتها فبدأت ترتاد المطاعم مع صديقاتها، بدأت تجلس مع عائلتها، تتحدّث هي ووالدتها في أمورٍ شتّى، زارت العديد من أصدقائها. وكل يوم تذهب إلى أختها تتسامران سويّة قبل أن تعود أدراجها إلى البيت.

ذهبت إلى الفندق وباشرت بتقديم استقالتها متذرّعة برفض والدها للعمل، وأسرعت تلملم حاجياتها، كانت عيناها تراقب الساعة في وجل وكأنها خائفة من شيء ما، وربما كانت خائفة فعلاً، فهي تنوي الهروب من حبّ يريد استهدافها، أرادت الهروب قبل أن يفتح قلبها للحب، كانت تهرب من حبّ جاءها واقعاً إلى آخر تعيشه في أحلامها. هي لا تريد أن تسجن مرّة أخرى باسم الحب فربما تغيّر هذا الحبّ مع الزمن وهذا ما كانت منى تخشاه، انتهت من توضيب حاجياتها وانطلقت إلى البوابة فاستوقفها صوته الهادئ.

- لم أعرفك جبانة إلى الحد الذي يجبرك على الفرار هكذا قبل وداعي حتى.

التفتت إلى مالك لتلمح آثار الحزن بادية على ملامحه الهادئة، لم يطل صمتها كثيراً حين اعتذرت له بشيء يشبه الهمس.

- لماذا ترحلين هكذا؟؟

- ربّما خوفي من حب جديد يطرق بابي. هل تريد شيئاً قبل أن نفترق.

- ردي إلي قلبي، ردّي مشاعري إلي، ردّي أشهراً من اللوعة والحب، هل تقدرين؟؟؟

اغرورقت عيناها بالدموع، وتراجعت إلى الوراء بضع خطوات لتهرب بسرعة وتختفي بين الزحام.

أدركت أخيراً أنها جرحته جرحاً بالغاً، أدركت بعد فوات الأوان أنه أحبّها حباً جماً، هل وقعت في غرامه فعلاً لذلك هربت بهذه الطريقة، الذنب ليس ذنبها هو جاءها في الزمن الخاطئ.

سارت في طرقٍ فيها آلام انبعثت من قلب الصدور، وفيها أحلام تتمنى راجية فعل المستحيل.

نظرت إلى أوراقٍ صفراء ساقطة من أعالي شجرة شامخة لتنبئ بأن الحياة تتجدّد فيها الأحلام. باتت أحلامها كشجرة خريف لا تحمل سوى اليأس في الأفئدة والدمع في العيون.

جلست على المقعد ذاته في كل مرّة يضيق بها الواقع اعتادت الجلوس عليه، وبدأت تذرف العبرات على حلمٍ سرق منها أروع الأيام. وضعت رأسها في يديها تفكّر تارة بمصيرها الذي ينتظرها وتارة أخرى تذرف الدمع على من كانت سبب شقاءه، وعلى من كان سبب شقاءها أيضاً.

openkan.com

أغلقت باب غرفتها وراءها بعد أن شيّعت حباً كان بمقدوره أن يسعدها، كانت تفكر بما فعلته لمالك، هل فعلت الخطأ أم الصواب، ربما كانت تنتقم من أحمد فظهر لها مالك بوجهها فأشبعته انتقاماً، كان باعتقادها كل رجلٍ هو أحمد، وأحمد يمثّل كل رجل. ربّما فارسها يختلف لأنه جاءها في الأحلام فحسب، ربما لأنه لم يكن لها واقعاً فرسمت في ذهنها صفات الرجولة له كما شاءت هي.

لم تعد تكتبه فهي باتت أشدّ إلحاحاً لرؤيته واقعاً. فكلّما حاولت أن تكتبه تشتاق له أضعافاً مضاعفة، وهو العاشق المتمرّد.

تقلّبت كثيراً في فراشها وأخيراً أغمضت عينيها على خوفٍ ودمعة لا تستطيع الفرار من بحر جف ماءه.

جاءها أخيراً بعد أشهرً من القطيعة، وقفت تنظر إلى عينيه اللامعتين كظلام الليل بقلب أذابه الحب، وهو ينظر إليها بفؤادٍ حطّمه الهوى، كانت مولّهة به وهو كان مدلّه بها لدرجة الجنون.

بدأ يراقصها ليخبرها بقصّة عذابه وتخبره هي بقصّة حبّها، طبع على جبينها قبلة رقيقة، نظراته لها تربكها وإن كانت في حلم، لامس خدّها بيده الدافئة وطبع قبلة كأختها على خدّها لتتورد وجنتاها خجلاً، وهمّ

بالرحيل، لم تشفع عنده دموعها المنسكبة، رأته حين دخل تلك المرآة الكبيرة حاولت اللحاق به فلم تفلح، نادته فلم يستجب وكأنه كره عالمها أو سراب، أو ربما ريح خطفت البسمة على شفاهها، كيف تلحق به وعالم المرايا لا يشبه عالمها المليء بالأحزان والآلام.

استيقظت على تلك الدمعة التي باتت صديقتها في كل حلمٍ تراه، ارتشفت من كأس الماء قليلاً، وبدأت تفكّر به،

لماذا دخل تلك المرآة، ولماذا هذه المرّة لم يهتم لدمعها الكثيف. وكأنه لم يكن يراقصها هي بل كان يرقص على جراحها.

تباً له لماذا يغيب أشهراً ليعود بعدها فيدغدغ مشاعرها ليرحل كما جاء.

وبدأت تكتب له:

في قلبها صفحات كثيرة مما فاضى به خاطرها، ففي كل صفحة ذكرى وفي كل ذكرى سعادة تولد من جديد، ولكن كلماتها مهما حاولت إسعادها تظلّ مسكونة بالحزن

بدأت الكتابة ولكن صوته الحزين كان ينبعث من بين السطور يختبئ تارة ويناديها تارة أخرى، في كل سطر كانت تسمعه يناديها. كانت

الكلمات قد هربت إلى عالم غريب لا يشبه عالمها، ربما سافرت إلى عالمه هو.

ارتجف القلم بين أناملها فدائماً في القلب حديث أصم لا تنصفه الحروف قاطبة، كلما حاولت أن تكتب كانت كلماتها تحمل صدى الألم. إلا أن استجمعت شجاعتها لتبدأ أخيراً.

كنتَ غريباً يا فارسي اليوم، كنت ترقص على أوردتي النازفة في سعادة وحبور، كنت تدندن أغنية لم أفهمها ربما كانت من تراث بلادك.

ألم تر تلك الدموع وهي تلهب مقلتي، لماذا لم تمسحها كعادتك، لماذا لم تضمّني إلى دفء صدرك كما كل مرّة. أم أنك اخترت الرحيل والهروب هكذا، كما اخترته انا حين رحلت عن مالك.

لماذا اخترت تلك المرآة لتعبر منها إلى عالمك؟ ولماذا لم تختار العبور إلى عالمي أنا ؟ استيقظ لأجدك بجواري نائماً، أتراك كنت خائفاً مني كي لا أتبعك، فأنت تعلم بأني لا أستطيع اجتيازها، أنا من الإنس ولست مثلك لا أعرف من تكن، تستطيع اقتحام أحلامي متى تشاء وكيف تشاء. تقرر أن تكون البطل فتكون، ترسم أحلامي بمفردك فأكون التابع لك دون أن أدري إلى أين تسحبني. وحين استيقظ وأتذكر أنك مجرّد

طيف في حلم ولا أساس لك في واقعي ألعن حينها نفسي ألف مرة لأني وثقت بك وجعلتك بطلاً أكتبه كل ليلة، لأعشقك أكثر وأكثر، فأنت عاشق متمرّد ذو كبرياء غريب، تزورني بعد ان تختفي عدّة شهور وكأنك على موعدٍ مع فتاة أخرى في أحلامها، ربما .. من يدري، فارس كم فتاة أنت، بالله عليك كم فتاة اقتحمت عالمها وعبثت بها كما تشاء، هل صدقّتك مثلي، أم فقط أنا الوحيدة الساذجة التي اخترتك بطلاً لحكاياتي الغبية.

سأخبرك سرّا يا صديقي مجرّد التفكير بك يجعلني سعيدة ويأخذني إلى عالم آخر من الخيال، أنت الوحيد من ملكّتك قلبي فاقتحمت حصونه وأذبت الجليد عنه، أنت الوحيد القادر على إنعاشه من جديد، فأرجوك لا تطفئه.

أنت فقط من أزاح ستار الظلمة عن حياتي ليدخل الأمل إلى قلبي. ليعشش في فؤادي رافضاً الرحيل إلى فؤادٍ آخر.

عشت برفقتك أروع الأيام التي خلّدها الزمن على صفحات من الزجاج القاسية، فمتى تضيء واقعي كما أضئت أحلامي.

عشقتك عشق القمر لنجمة الصباح، وعشق الأزهار لقطرات الندى.

عشقتك عشق المسافر الذي ضل طريقه في البيداء لقطرة ماء تطفأ ظمأه.

سأحبك بقدر البسمة التي خلقتها في حياتي منذ قدومك إلي.

سأحبك بقدر الأحلام التي رأيتك فيها.

سأحبك بقدر العبرات التي سكبتها حنيناً واشتياقاً لك.

سأحبك بعدد ليالي الأرق وأنا قضيتها في ذكراك.

سأحبك بعدد الأحرف التي باح بها قلبي لقلبك.

سأحبك بعدد لمساتك الدافئة ونظراتك المربكة.

سأحبك بعد غياباتك وإن طالت.

فأرجوك كن واقعياً ولا ترحل دون سبب ثم تجيء دون سبب، وكأني جالسة في محطّة القطار انتظر وانتظر وانتظر، فلا تجعل حياتي مبنية على انتظارك، فأنا بت أكره المراوغة كثيراً وأكره الانتظار أكثر. كم أتمنى أن أعرف اسمك ومن أي دولة أنت ينقصني الكثير من الأحلام لأعرف من تكون.

obeikan.com

كل ليلة أتذكرك فأدعو الله أن يكون لقاءنا قريباً في أرضٍ اختارها أنا هذه المرّة، سأكون حينها بطلة رواياتك لأنتقم منك أشد الانتقام، فأجعلك تكتبني كما أكتبك، ألست أنت من قلت لي أن الكتابة عشق، والعشق كتابة، هل ستخلّدني حينها بين سطور أقلامك.

هذه أول مرة تكتب بها منى ما فاض به قلمها كانت موجوعة والكتابة كانت تعبير عن وجعها فاسترسلت دون أن تنتبه، أرادت هذه المرّة ترك لمشاعرها العنان بعد هجرٍ طال الثمانية أشهر.

الآن أدركت أن الألم الذي سببته لمالك كان فظيعاً، لم تهرب من مالك للمرآة هربت إلى أحلامها أما فارسها هرب إلى المرآة كي لا تتبعه. لكن فارسها هرب إلى نفسه، غاص فيها عميقاً، لم تستطع منى من اللحاق به فهي تخشى على نفسها من الانجرار وراء أوهامه.

وقفت منى أمام مرآة خزانتها تحسستها فربما وجدت شيئاً يدلّها عليه، لكن لم تجد سوى مرآة قاسية تظهر صورتها هي، تأمّلت وجهها كثيراً قد ذبل عن آخر مرة رأت نفسها في المرآة ونحل جسدها أيضاً.

ربما وصلت رسالته هو لم يرد لمنى أن تتبعه بل أراد لها اكتشاف ذاتها من جديد فهاهو عمرها تجاوز العشرين وجسدها إمرأة تجاوزت الثمانين.

***

عاد والد منى إلى بيته في تلك الليلة الخريفية الباردة بوجه أحمر غاضب، يكاد يفتك بكل ما يراه.

عرف الآن من مصادر موثوقة أن لابنته الوحيدة حبيباً يراها وتراه بعيداً عن العيون، ومن تكون هذه المصادر الموثوقة سوى أحمد؟ فمن له مصلحة في تشويه سمعتها غيره لتعود إليه مطأطئة الرأس، لا يرغب بها رجل سواه، فما كان منه إلا أن أشاع قصة حبها على الملأ فاضحاً إياها معتزّاً بما فعله. وكان يعلم ما سيفعل والدها حيال ذلك، فحتماً سيعيدها إليه عنوة، ليدخلها سجنه مجدّداً، ويكبلها بقيود من حديد.

فتش والدها غرفتها بمرأى منها ومن والدتها التي تحاول تهدأته دون جدوى، كان الشرر يتطاير من عينيه، وهو يفتّش ويفتّش عن شيء يدينها به، كان تدعو الله ألا يلاحظ دفترها ففيه إدانتها سيقتلها حقاً دون رحمة، لكن لم يدعها تكمل ابتهالاتها إلا والدفتر بين يديه يتصفّحه،

صبّ جام غضبه على الدفتر ومزّقه إرباً، كاد أن يذبحها فأخذته زوجته من الغرفة لتهدأته، نعتها بأبشع الألفاظ. ها هي الآن بنظره كما كان يخشى، جلبت له العار، أصبحت سيرتها على الملأ، صارت قصتها حديثاً للتداول بين الجارة فلانة والجارة علّانة، وكأنها الوحيدة المتواجدة على كوكب الأرض.

لم تستوعب شيئاً من كلامه سوى ما قاله في النهاية (الخميس عرسها على أحمد من جديد). في هذه اللحظة استوعبت ما يجري في غرفتها من هجوم للمغول عليها، فقد أحالوا الغرفة دماراً شاملاً.

ترك الغرفة والدها بعد أن جعل الغرفة عاليها سافلها، جلست لتستوعب ماجرى وفتات دفترها بين يديها، لقد قضى على آخر ما يجمعها به وهي الرسائل التي كتبتها بدموعها المظلمة المنسكبة على الأرض. لقد اغتال فارسها الذي أحيته في هذا الدفتر، اغتال حلمها الذي كتبته، قلمها ينزف بين يديها، ما دخله هو في حربه الغاضبة ليكسره، لقد كسر آخر خيط للحب عندها، دمّر حلمها الوحيد في الحصول على حريّتها.

لم تكن تدري بأن النهاية ستكون أليمة وتجرّها إلى عوالم لا شيء فيها سوى الآهات.

كانت وخزات الألم تصرّ على اختراق فؤادها الجريح لتعبث به كيفما تشاء.

ما بال هذه الفتاة تنتهي إلى حيث بدأت، وما أحلامها سوى قطع من الزجاج رسمه خيالها العابث على ثرى المستحيل.

صفعها والدها صفعة قاسية حين نعتها بأبشع الألفاظ، على ماذا؟ على حبّ لم يولد بالأصل حبّ ولد وترعرع ودفن في الأحلام.

تركها والدها تستحم بعبرات أثقلها الزمن على كاهلها المتعب.

ولكن هل سيهزم الحبّ والهيام في ذاتها، لا إطلاقاً ... كان حبّها أقوى من أن يذهب أدراج الرياح الباردة.

جلست على السرير الذي افتقدته منذ أشهر، نعم استطاعت الهرب من والدها لتعود مجدّداً إلى هبا أختها، رافضة كل الرفض العودة إلى السجن ذاته، فلم تشفَ جراحها بعد من تلك الجنازة التي شيعوها بها على إيقاع الأغاني الهابطة، لم تنس أبداً نظراته الواقحة إلى كل جسدٍ

يتمايل أمامه. في ذلك المأتم الذي ضمهما سوياً ليعلنهما زوجين، هو ولد من جديد بعد الحفل، وهي دفنت وجسدها بقي لا يفقه ما يحدث.

صرخت منى في أختها باكية:

جلبت العار لعائلتي دون قصدٍ مني، أوّل مرّة أتشجع وأرغب في المزيد من الحب، نعم أحببته ولا أنكر ذلك، أحببت ذلك الطيف حباً لذيذاً لذلك ارتضيت تلك الصفعة على حب أبى أن يأتيني واقعاً، على حب اختبأ في زاوية المرايا، وفي أحلام عابرة، كنت أريد أن أعيش لأشعر بأني ما زلت أنثى لي الحق في الحب، كنت أريد أن أكتبه أكثر وأكثر، أكتب عن حبّ استعمر خلاياي، هو طلب ذلك قالها لي اكتبيني كي تعشقيني.

سكتت.. شهقت.. بكت.. صرخت.. ذرفت المزيد من العبرات وكتمت آخر صيحة لها من وجع.

أيمكن بعد كل هذه الأحلام تعود إلى أحمد ولا كأنها هربت منه في يوم من الأيام، لماذا انفصلت عنه لتعود إليه بذلٍ أكبر من ذلك الذل؟ هذه المرّة لن تستطيع رفع رأسها في وجهه.

ابتسمت لها هبا لتخفف عنها قليلاً ولو إن جراحها لا توجع أحد غيرها، وعادت إلى غرفتها ومعها دفتر وقلم قائلة لها :

- اكتبي ما فاض به قلبك، فلن ينزعه من فؤادك أحد، ولن يرغمك أحد على شيءٍ لا ترغبين به.

أغلقت الباب خلفها تاركة منى في مأساة يصعب فهمها، تبكي الحب دون الحبيب، ربما حاجتها إلى حبيب من دفعها إلى الانهيار هكذا.

كانت تدافع عن حب غير مرئي، حب ولد في أحلامها فقط، ولكن قناعاتها كانت أكبر من ذلك، فهي من أوجدته حين بدأت بكتابته، قلمها هو الذي أحياه بين سطور صفحاتها، كانت تستمع إلى أحاديثه، يغازلها.. يناجيها .. يمسح دموعها تارة وتارة يبكي لأجلها. حب كهذا كيف له أن يخبو دون أن يضيء.

وبدأت تكتبه وكأنها متعطّشة للقائه .

اعتذر لأن والدي فتك بحبك قبل أن ينمو، لا لن يفتك به فحبك سيبقى إلى أبد الآبدين في قلبي.

أخبرني يا فارسي من أنت حتّى أدافع عنك بكل جرأة، كنت سأصرخ بوجه والدي ألا يقتلك ولكنه كان يتفنن في تمزيقك كما تتفنن أنت في الهروب مني، لقد رآك في دفتري الصغير، رآك وعيناك تغازل عيناي، رآني وأنا بين ذراعيك نائمة، لقد لمح الحب في عيناك السوداوين، ليته مزّق قلبي حين مزّقك. سيعثر عليك حينها وأنت مخبّأ في زاوية من زواية قلبي، سأتوسّل إليه أن يدع حبّك يغذّي شرايين قلبي.

أتدري يا أميري إذا علم والدي بأمر مجيئك إلى مخدعي ليلاً، سيمنعني من النوم وسيسهر هو على ذلك، سيجنّد أمي لخدمته، فهو يكره هذه الكلمة ويخاف منها، إلى الآن لم أسمعه يتلفّظ بها.

وقفت أمامه وحيدة في مواجهة تيّار جارف، أسمع نوبات غضبه تكاد تلتهمني، كانت الخزانة وراء ظهري، أتدري لماذا؟ لا تستعجل الإجابة، سأخبرك يا فارسي .. كنت أخشى عليك منه، سيحطّم المرآة حتماً إلى أشلاء إن رآك فيها، ستنزف دماً مرآتي حين أحاول لملمة جراحها النازفة ستكون جراحك هي من تنزف عوضاً عن تلك المرآة القاسية، كنت أخبئ أسراري بداخلها فهي الشاهدة على قصّة هروبك مني في تلك الليلة.

حمدت ربي لأن أبي لم يفعلها وإلا لكان قضى على آخر خيط يربطنا.

أتراك يا سيدي أنت لست بإسرائيل وأنا لست بفلسطين.

أنت كيان محتل بجدارة لقلبي وأنا الأرض الطيبة التي يعجبها هكذا احتلال. اطمئن يا سيدي لن أتحرر من قيودك .. لن أطالب بالحريّة .. فحريّتي هي امتداد لاحتلالك .. سأهتف في كل المسيرات بتمديد الاحتلال .. سأتزعم المظاهرات وسأصرخ بأعلى صوتي أن يدوم احتلالك لقلبي.

لماذا لا تأتي اليوم وتخبرني كم اشتقت إلي هكذا دون مقدّمات، هكذا ولو لمرّة واحدة تكون أنت فيها البادئ قبل أن أكتبك باليوم آلاف المرّات، وانظر للساعة دوماً وكأن مجيئك مقترن بها هي لا بك، تلك الساعة التي سئمت نظراتي لها وكرهت نظراتي المتفحّصة لها كل حين.

أتعلم يا فارسي ما هو العجز.. أن أشتكي منك وأن أكتب لك وأكتب عليك، أن أبكي كل ليلة لكي أراك ولو في حلم قصير المدى، وليس في واقع سيغدو أجمل حين تزوره أنت. ها هو العجز يا سيدي أن أشتاقك فبدلاً من لقاءٍ يجمعنا أكتب لتجمعنا بضعة سطور، ليس بيدي حيلة سوى أن أكتب إلى أن يجف حبري، أو تنطفئ روحي.

في أحلامي أنت خيال ممتد إلى ما لانهاية، كامرأة عجوز مات عشيقها منذ فترة مراهقتها وعاشت وحيدة تنتظر الموت سبعين عاماً لتلتقيه مجدّداً.. ستأتي أعلم ذلك ولكن لا أعرف متى ، تغيب كما تشاء لترحل كما تشاء، بإرادتك أنت تغيب وتعود كما يحلو لك.

هل ستعود لتعتذر عن خذلانك المتكرر لي، كلماتك .. ابتسامتك .. أحضانك .. كلها اتفقت على خذلاني معك،، كثرت الخيبات منك وحدك، هل ستأتي لتخبرني بأنك آسف لما حلّ بي من وراء حبك، هل ستصبّرني على حياة جديدة ستبدأ من غدٍ، ستكون قاسية الأيام دونك، ما ذنبي إن كان قلبي قد تعلّق بك كثيراً، تعلّقت بك حتى نسيت أنك طيف لا وجود لك في أرض الواقع، لا أريد لنفسي الهلاك من فراق محتّم تختاره أنت.

أنت ملك الأحجية يا سيدي، أنت فقط من يحقّ له الحضور والغياب، أنت فقط من يحقّ له العشق، الغزل .. الحب .. الملمس الناعم .. الأحضان الدافئة .. أنت فقط، وأنا لا يحقّ لي شيء سوى الانتظار كساعة مهملة على الجدار تراقبها عينا فتاة بشغف تنتظر وصول أميرها من حرب ضارية، النجاة منها أشبه بالمستحيل، فكلانا ربّما لم يخلق للحب، خلقنا للانتظار.

نسيت إخبارك بعودتي إلى غرفتي التي شهدت أولى أحلامنا هنا، على هذا السرير كم تمنيت لقياك، لم أعد إلى هنا لأن نفسي اشتاقت لك، بل هرباً من والد سيشيّع جثماني مجدّدا إلى من هربت نفسي منه مسبقاً.

سامحني إن لم أكن لك يوما.... ستكون في أحلامي دوماً.

أسرفت منى في مشاعرها كثيراً وأفرغت ما في جعبتها من حنين ممزوج بألم، وضعت الدفتر في درج الطاولة وأحكمت إغلاقه جيداً خوفاً عليه من إبادة ثانية.

توجهت إلى سريرها لتنعم بنوم كانت تحسبه هانئاً ولكن هيهات فالخوف من القادم ما زال يعتريها، والحنين إلى المجهول ما زال يجتاحها.

كانت تدري أن والدها الآن يستشيط غضباً، ولكن ما ذنبها إن كان هو من دفعها إلى ذلك. هي تدرك أنه لا يستطيع الإتيان إلى هنا وخاصة أنه على غير وفاق تام مع مصطفى زوج هبا.

فهو يكن له حقد دفين وخاصة أن ابنته أفلتت من يده دون عقد الصفقات. فهي على اختلاف أختها رفضت أن تكون صفقة للبيع.

لذلك رفض والدها هذه الزيجة مما استدعى تدخل أعمامها الذين زوّجوها دون موافقة والدها. وحين علم خروج ابنته عن إرادته لم يستطع فعل شيء سوى الكره الشديد لزوج ابنته.

وإن كانت المرّة القادمة استطاع أن يأتي فلأنه أحس بخروج الأمر من يده وهاهو سيخرج مرّة أخرى إن بقيت منى هنا على عنادها.

ها هي منى تحذو حذو أختها هبا وترفض أن تكون سلعة تباع وتشترى.

فهي إنسانة من زجاج يسهل كسرها، رقيقة في كل شيء، مثال للطيبة والنعومة.

لا تريد شيء سوى تركها تنعم بسلام تبحث بين رفوف الكتب عن حب طاهرٍ لا يلوّثها، تبحث في أحلامها عن فارسٍ بلا جواد يقتحم حياتها صدفة على أرض الصدفة الواقعية.

هو ذكي جدّاً استطاع أن يأسر قلبها دون أن يتنازل عن كبرياءه، استطاع أن يتركها في حالة ضياع تام، يريدها حبّاً لا متناه ومع ذلك يهجرها بالأشهر قبل أن يفكّر بالعودة، لم يتركها تعيش حياتها كما تحب ولم يأتيها لتعيش الحياة حياتين بوجوده معها.

***

اتصلت بها صديقتها بعد شهر من عودتها إلى منزل هبا لتخبرها بفرصة عمل مناسبة لها في شركة تجارية تناسب مؤهلاتها.

سرّت بذلك منى، ستقتل الملل من جديد، ستتناسى فارسها مؤقتاً لتعيش بسلام مدّة لا بأس بها من الزمن ريثما يطلّ عليها من جديد في حلم قصير.

دوّنت عنوان الشركة على ورقة صغيرة بيضاء ووضعتها على الطاولة قربها واستعدّت للنوم وأمامها تطلّ صورته التي رسمتها من جديد، استطاعت حفظ تقاطيع وجهه.

في صباح يومها الذي يليه جهزت نفسها جيداً، دعت الله مراراً ألا تقابلها أية عراقيل تواجهها في هذه الشركة المجهولة.

قررت أن تخطو خطوة في سبيل سعادتها لن يعرف أحد أخبارها الجديدة، هي سعادة مؤقتة وتدرك ذلك ولكن هي بأمس الحاجة إليها.

خرجت لتلحق بموعد عملها الجديد فقد أعطتها صديقتها موعداً للمقابلة ويجب ألا تتأخر عليه، أنى لها أن تحصل على عملٍ جديد إذا فات عليها هذا الموعد.

دلفت إلى بهو الشركة وكانت مؤلفة من أربعة طوابق من الرخام الأبيض مبنيّة، كانت كبيرة جدّاً وفيها آلاف الموظفين يعملون بها.

استقبلتها موظفة الاستقبال بابتسامة جذّابة تزيّنت بها، أخبرتها منى بموعد مقابلتها أجلستها قليلاً في غرفة الاستقبال إلى أن دقّت الساعة الثانية عشر معلنة بأن موعدها قد حان، ولكن تأجّل موعدها لدقائق ليست بالكثير لتخرج فتاة شقراء من الغرفة المجاورة وتنادي باسمها، فتتقدّم منى بكل ثقة وقليل من الارتباك فتتبع الموظفة وتدخل إلى مدير الموارد البشرية.

دخلت إليه وحيّته بإيماءة من رأسها خجلة ومرتبكة بعض الشيء، جلست قبالته هو يسألها وهي تجيب، تطرّق إلى كافة جوانب حياتها الاجتماعية والتعليمية دون التطرّق إلى مواضيعها الخاصة مما أثلج قلب منى وارتاحت كثيراً فاسترسلت معه ناسية ارتباكها وخجلها.

نجحت في ذلك واستطاعت ان تقلب الكفّة لصالحها حين نادى الموظفة الشقراء والتي أدخلتها منذ قليل، لتأخذها إلى مكتبها وتعلّمها طبيعة عملها الجديد.

رحّبت الموظفة بمنى وكأنها تعرفها ردحاً من الزمن، وبدأت تعلّمها ما ينبغي لها أن تتعلّمه وطبيعة منى فتاة ذكية تكتسب المهارات بسرعة فائقة.

فرحت منى بعملها الجديد كان قريباً من عملها في الفندق، فهي لن تضطر للخنوع لوالدها من جديد، ولن تفكّر وهي تعمل هذا العمل الكثير بفارسها وهجرانه الغير مبرر، وأحمد لن يجدها هو ولن يلاحقها فهي لن تكون له أبداً، ومالك أيضاً لن يجدها ها هنا فهي إلى الآن لم تسمح لنفسها ان تسامح قلبها على ما فعلت به من آلام.

***

عادت إلى بيت أختها سعيدة بعملها الجديد، استطاعت أن تعمل بجد لتنسى مشاكل قلبها قليلاً ولترتاح من عبث الحياة الصاخبة.

جلست مع هبا على طاولة الطعام تتحّدث عن عملها الجديد، كانت سعادتها ظاهرة على خدّيها، فقصّت عليها ما حدث منذ ولوجها إلى الشركة الضخمة إلى أن خرجت من المبنى العملاق بتفاصيل مفصّلة جعلتها تبدو وكأنها كانت معها ولم يغب عنها شيء.

لا تدري من أين جاءت سعادتها الكبيرة، فقلبها لم يخطئ في حدسه يوماً وكأن فارسها قاب قوسين أو أدنى منها.

دخلت غرفتها وقفزت على سريرها بخفّة ونشاط، وتذكرته في آخر لقاء جمعهما سويّة، لم تستطع نسيانه فالأمر خارج عن إرادتها. هي محتاجة إلى دفء أحضانه في أوقات كهذه، تحتاج إلى عبارات تشجيعية تخرج منه، فكيف السبيل إلى لقياه وهو العاشق الهاجر.

أخرجت دفترها بعد أن أفرجت عنه وضمّته إلى حضنها لتشعر بدفء كلماتها عنه وهو بين أحضانها، قبلته ثلاثاً، وفتحته لتكتب له وعنه وبه.

اشتقت إليك يا فارسي ويا أميري.

في كلّ مرة أحتاج إلى مسمّيات جديدة لك فحتّى الآن لم أستقر على اسم أناديك به، فكن فارسي إلى حين أعثر لك على اسم جديد.

وكلّي شوق لمعرفة اسمك أيها الأسمر يا من تسكنه ملامح العربي الأصيل.

أتدري كميّة الشوق التي زرعتها في وريدي منذ رحيلك عني آخر مرّة وإلى الآن وأنا متيّمة بك أكثر من قبل.

كلّي حنين لاحتضانك، لألمس وجهك بيدي الباردتين فتطبع قبلة رقيقة عليهما لتحمرّ وجنتاي خجلاً. وأطبع أنا بدوري قبلة على خدّك الأيمن وأهرب خجلة قبل أن تفيق من صدمتك.

أريد أن أحيا بك ولك، فهل هذا مستحيل؟

أردتك حبيبا واقعياً لا ينضب مع حبري، لذا بدأت بكتابتك لتحيا في قلبي وتكبر بين سطور دفاتري.

كنت أقرأ طوق الياسمين البارحة وهو لواسيني الأعرج فلمح ذهني عبارة ذكرتّني بك (الكتابة التي لا تدخلنا غمار الحلم ليست كتابة) وكأنّه يتحدّث عن حلمنا سوية، فمتى تحقق الحلم لأكون بطلتك.

obeikan.com

فأغوص في قاع الحلم لعلّي أجدك، أكتب عنك صفحات لا تمتلئ بأقلام لا تنطفئ، وكلّما نفذ حبر قلمي أسرع لأحضر المزيد، فما ذنبي أنا إن كان حبيبي لا ينضب.

هل تراك أعجبتك العيشة بين سطوري، أم استهوتك لعبة الغميضة وأنت تختبئ من سطر إلى آخر، ومن كلمة إلى أخرى. تعيش على بقايا حبري، رافضاً الظهور لتراك عيني، ولكني أراك يا حبيبي، في كل سطر أكتبه أراك كما لو كنت في حلمي الشهي. في كل كلمة أكتبها أراك. فلا تلعب معي مثل هذه الألعاب مرّة أخرى لأنني سأشعر برائحتك في كل حين.

ألن تأتي ثانية فأراك وأحضنك، فقد تعب قلمي من البوح بالحنين لك.

عد يا سيدي، فأنا أرجوك، باستطاعتك الهروب إلى المرآة متى شئت، فهنا توجد أيضاً مرآة كبيرة، هي ليست بكبر تلك المرآة إنها أصغر قليلاً، لكن باستطاعتك أن تدخل منها فتخفض رأسك قليلاً.

انتهت منى مع دمعة مستقرّة على خدها يتيمة لا تعرف السبيل، مسحتها بلؤم وكأنها ترفضها وترفض انسكابها في لحظات تتمنى لو تكون قوية، لكن تعود تلك الدمعة فتخونها من جديد.

غفت وهي ما زالت تحدّق بالسقف الرمادي ويدها تلعب بضفيرتها المدلاة على صدرها ويدها الأخرى تحت رأسها ، فتراءت لها صورته مرسومة بعناية في السقف.

***

هناك كانت تنتظره، عند شجرة الحب وسنابل العشق، عند زهور اللقاء وياسمين البعاد، هناك اختار هو أن يكون موعدهم حيث بدأوا الحبّ في الأحلام.

في عينيه رأت تفاصيل الحكاية، بوجه شاحب عاد إليها توّاق إلى ضمّها والبكاء كما الأطفال على صدرها، كفارٍ من الحرب أوشك على الهزيمة عاد، أشبه بجندي جريح يجرّ إذلال الخيبة خلفه.

نظر إليها مرّة أخرى كطفل تواق لحضن أمه الدافئ، نظر إلى عينيها العسليتين وكأنهما نهر من عسلٍ لا مدّ له وهو الذي ينهار من الظمأ، بكى كما لم يبكي من قبل، وأمسك كلتا يديه بيدها الدافئة لعلّها تسامحه.

على الأرض جلست أمامه لتمسح عينيه السوداوين المشعتين كظلام الليل تمسح عبراته السخية بيديها الباردتين، فخبّأ وجهه كغزال يبحث

عن مأوى هرباً من ذئاب الحياة، كطفلٍ يتيم وجد أمّه فجأة في حلم مجهول، كفراشة احتمت في وردة لتهرب من عبث الحياة، نام وهي مازالت تربت على شعره، نام وهو في أحضانها ممسكاً بتلابيب فستانها، ممسكاً بهما بقوّة خائف من الحياة خلف أسوار حبّها.

استيقظت على ثلوج يناير تضرب نافذتها بقسوة، كانت الثلوج تغطّي مساحات ليست بالقليلة، وكان البرد على أشدّه، وقفت أمام نافذتها فتراءت لها دمشق بفستانها الأبيض كعروس في ليلة زفافها، زادها الثلج الناصع جمالاً فوق جمال.

مرّ شريط حلمها مصوّراً أمامها بتفاصيله الحزينة وكأنه يعاد من جديد.

كانت كلماته كشعرٍ شفاف يطفو على سطح الماء.

أخبرها أن تسامحه ولا تدري لماذا؟ ربما بسبب هجرانه المتكرر.

هذه المرّة غاص فيها كثيراً وهي كذلك. ولكنها مع ذلك لم تحاول فهم كنهه، إلى الآن لم تفك طلاسيم أحجيته.

هذه المرّة لمحت الحزن في عينيه والدموع كذلك، ربما هي أيضاً دواء لجراحه كما هو بلسم لجراحها.

لماذا اختارها من بين نساء الأرض قاطبة ليأوي إليها، اختارها هي فقط ليبكي في أحضانها، استطاعت أن تسمع ضجيج صمته فبكاءه كان مريراً، أصغت إليه جيداً فسمعت أوجاعه الصاخبة، صمته ربّما بداية لحكاية جديدة، معاني البوح جميعها تكسّرت في صمته، آلامه هي من تكلّمت هذه المرّة.

وكان هذا آخر حلمٍ لمنى معه وآخر لقاء جمعهما في الأحلام سوية.

وعادت تكتبه وهي تشعر به هذه المرّة أكثر من غيرها من المرّات.

أخبرني يا فارسي ما الذي أبكاك.

أخبرني عن أحلامك... حكاياتك... أحزانك... أوجاعك ... عذاباتك...

عن ماذا تبحث في الأحلام؟

إلى أيّ حدٍ تتألم وتتعذب؟

إلى أيّ حدّ أنت خائف ومرتاع؟

إلى أيّ حدّ أنت يائس من الحياة؟

كانت أحزانك بالنسبة لي متعبة جدّاً. لم أعتد على رؤيتك هكذا وأنا التي كنت أعتز بك.

أراك رجلاً قاسياً لا تهزمه قسوة المرآة أتبكي في حض امرأة .

سنجد بعضاً لا أدري من أين استوحيت ثقتي هذه، لكني على يقين بذلك، ربّما يختلف الزمان والمكان، ولكن في بقعة من على هذه الأرض سنرى يوماً بعضناً.

أتمنى حينها ألا أراك بصحبة غيري، وألا تراني بصحبة غيرك.

سيبقى فؤادي لك مفتوحاً ولن يغلق، سأكون جاريتك إن رغبت، ولا يهمني حينها إن صرخت بأني أهواك يا من عشقتك في أحلامي على مدى ثلاث سنوات،

وفي كلّ لحظة تمرّ عليّ أتمناك لو تكون واقعاً أبكي على صدرك أياماً بعدد الأيام التي أراك فيها في أحلامي،

سأظلّ أكتب لك إلى أن أراك في حلم عابر مرّة أخرى حينها سأجعل ليلتي سنيناً لكي لا ترحل كما في كلّ مرّة، أو ربّما سأتحوّل إلى طيف مثلك أو جن أو ملاك لأبقى معك وأغيب معك،

أعدك حينها سأحوّل الليلة إلى ليالي، لن أجعل الليلة اثنا عشر ساعة، لأجلك سأجعلها اثنا عشر شهراً، لأبقى بجوار سواد عينيك الملتهبتين كالفحم المتّقد، بجوار يديك الدافئتين وتلك الابتسامة السحرية أشبه بابتسامة هوليود، حتّى أحضانك وقبلاتك وعبراتك كلها اشتقت إليها وأتمناها واقعاً فلا تجعل مرآة وبعض الأحلام تفصل بيننا يا عزيزي.

بدأت بالنحيب عند نهاية آخر سطر لتعلن لنفسها أنها ما زالت هشّة من الداخل ويسهل كسرها بمباركة طيف، أياماً وهي تمنع تلك العبرات من الانسكاب ولكن ماذا بعد؟ إلى أين النهاية؟ لا شيء يبشر بالخير، لا شيء جديد يلوح بالأفق.

هي أنثى حساسة مليئة بالمشاعر المرهفة تقتلها كلمات الشوف والحنين تقتلها الغرفة الموحشة والليالي الباردة، يقتلها شتاء يناير. كل ما في الكون اتفق اجمع على خذلانها.

ما ذنبها إن كان شتاء يناير يبعث في قلبها الحنين، كطائر في الأفق يطير يبحث عن مكان دافئ ليعشش فيه.

علّقت جلّ آمالها عليه، وباتت تنتظر أكثر من ذي قبل وكأنه ضرب لها موعداً قريباً ولكن هيهات أن يأتي فهو يعشق الهروب كثيراً ويتفنن في الهجر.

وككل ليلة إن لم يأتِ إليها تستيقظ لترثي الحب وتنام وعيناها كالجمر الملتهب. تناست بأنه وهم زائل إلى سراب مهما بكت لأجله لن يطّل ليحضنها فأنّى لطيف أن يشعر بحزنها، أضحت حروفها التي تكتبها له مسكونة بألمٍ فظيع ومن بين حزنها يطلّ حزنه هو.

وفي الشركة الأمر مختلف، تطلب قهوتها كعادتها وتحبذها بدون سكّر وترتشف بهدوء على أنغام فيروز وحنينها الصباحي، تعمل بجدّ ونشاط متناسية ما حلّ بقلبها من آلام، تدخل إلى مديرها يتناقشان في أمورً شتى، ويتبادلان الأوراق لتعود إلى عملها ومعها مستندات جديدة تعمل عليها، لا يتسنّى لها أوقات فراغ لتفكّر بالحب الذي ولّاها ظهره.

حياتها مزيج من الشركة والبيت، ففي الشركة عملها على الحاسب لا ينتهي، سبع ساعات وهي منكبّة على عملها لا ترفع رأسها سوى لترتشف فنجان قهوتها أو لتأكل ساندويتش من كافيتريا الشركة. ومن ثم تعاود الروتين ذاته كل يوم.

استطاعت تكوين بعض الصداقات في الشركة وصارت تأوي إليهن في أوقات الاستراحة أو حين لا يكون لديها عملُ مكثّف.

تناست وهي في غمرة هذه الأجواء فارسها المحبوب، لتعيش حياة كما الأخريات، لتتنعم بحياة هادئة وديعة كان عليها فعل ذلك وإلا لهلكت قبل أن تراه، لكي لا تخسر حياتها أيضاً على حافة الانتظار، فلتترك قضيتها للقدر فربّما جاءها صدفة، فربّ صدفة خير من ألف ميعاد.

ستظلّ سعيدة في حياتها وإن كانت هذه السعادة مؤقتة فهي أحوج إليها من غيرها.

أمّا في البيت فحياة ثانية لمنى تنتظرها هناك، سجنها البارد الصغير يدفئ نفسه بها حين تدخله، وكأنه هو من يحتاجها وليس العكس.

هذه الغرفة الباردة ذو السرير الواحد والسجادة القديمة والخزانة الخشبية والطاولة وتلك المرآة الغليظة المستندة بقدم واحدة إلى الجدار كل هذه الأشياء تذكّر منى بموعد فارسها المبجّل الذي سيأتيها دون موعد.

تقف أمام مرآتها ذات القدم الواحدة تتأمّل نحول جسدها وشحوب وجهها وتلك الهالات السوداء القبيحة تحت عينيها.

ومن ثم تترك منى القديمة في المرآة لتظهر منى أخرى أكثر اكتئاباً، فتبدأ الكتابة له كعادتها اليومية تبكيه في كل صفحة، تنتحب عند نهاية كل سطر، تصرخ عندما تذكر اسمه، تخرج ما في قلبها من مشاعر مخزّنة جيّاشة، وتنام على ظهرها وعيناها متشبثتان في السقف كمحتضر يتراءى له الموت كل ثانية، تفكر بالحلم الأخير الذي ضمهما سوياً، ثمّ يتكرر المشهد وحلقات المسلسل كله أمامها، تحاول فهم الأحجية وكعادتها تفشل إلى أن يغلبها النعاس فتنام دون أن تراه.

***

obeikan.com

الفصل الثاني :
وصدقت نبوءة الأحلام
لا تتوقف عن حلمك حتى لو بات مستحيلاً

ثلاثة أشهر مرّت ومنى منكبّة على عملها الجديد بهمّة ونشاط، بمرحٍ أضفى على حياتها الكثير من الارتياح، في هذه الفترة نسيت فارسها أو تناسته لتغوص في أعماق حياتها الجديدة دون حبّ يكركب حياتها.

وفي الأول من ابريل كانت تقف أمام نافذتها في مقرّ الشركة تستمتع إلى قطرات مطر نيسان وهي تتهاوى على نافذتها الزجاج وكأنها تريد أن تخترقها لتستقر هي ومنى سوية فتناجي فارسها وحبها اللامتناهي بصحبة هذه القطرات.

كانت الأرض عطشى وبحاجة إلى ماء غزير يثلج صدرها تودّع فيها أواخر الشتاء. تكاثف السحب أكثر مما قبل واسودّت السماء فتضاعفت حبّات المطر وكأنّ الشتاء يريد أخذ كل شيء لديها قبل أن يرحل إلى المجهول. كانت شاردة في حنينها هذا حين انتفض بدنها بعد أن سمعت عدّة رجال يلقون عليها تحيّة السلام، التفتت إليهم خجلة وبادلتهم التحية

obeikan.com

بالمثل وسمحت لهم بالدخول إلى المدير فقد كانوا على موعدٍ معه. هو بانتظارهم في مكتبه، كانوا سبعة رجال من رجال الأعمال. حيّوها بأدب بالغ ودخلوا إلى المدير، باستثناء أحدهم، لم يكن مالكاً ولا أحداً بل كان أروع من الاثنين، حضوره طغى على كل الرجال، نظر إليها تلك النظرة الفضولية الغريبة، أطال النظر في عينيها، وتسمّرت العيون لوحدها دقائق وهي شاردة، شاهدة على قصّة حب زرعت في الأحلام وها هي أوّل بذورها على أرض الواقع تنمو، صمت الكون لأجلهم باستثناء لغة العيون تحكي ما في قلبيهم من وله وعشق، عينيه السوداويين كليل لا مدّ له، تفاصيل الوجه هي نفسها لم تتغيّر.

ارتبكت منى من نظراته الجريئة والثاقبة وجلست وراء طاولتها تفرك كلتا يديها ببعضهما وعيناها مثبتتان على ما أمامها من مستندات، وعيناهُ ما زالت تراقبها بنفس الفضول وكأنه يحاول أن يشبع عطشه منها، وأخيراً كسر حاجز الصمت بعد أن وقف أمام مكتبها بشموخه الحاد كالصقر.

- كم تبدين أجمل بكثير من الأحلام.

- وهل تعرفني أنت.

- نعم .. أكثر مما تتخيّلين. منذ خمس سنوات وأنا ألتقيكِ.

- أين؟؟ ولكني لم أراك إلا الآن.

- في حلم عابر... أو على الأصح بضعة أحلام عابرة.

دخل الغرفة وراء أقرانه بعد أن أدخلها في دوّامة من الحيرة، حامت حول رأسها أسئلة كثيرة تريد أن يخرج فوراً ليجيبها عليها. كيف ؟ ومتى؟ ولماذا؟ لا أحد يعرف هذه الأجوبة سوى فارسها، إذا هو أيضاً يراها أميرة أحلامه كما كان هو فارسها.

تغابت منى حين تحدّث معها لئلّا تفضح شوقها وحنينها إليه.

وها هو أضحى حلمها واقعاً ماذا ستفعل حيال ذلك؟

دخلت عليهم بالمستندات المطلوبة ولاحظت عينيه تراقبها في كلّ حين، خرجت بعد أن فرغت مما طلب منها المدير، جلست على طاولتها تفكّر به بعد أن جاءها بقدميه إلى مكتبها، تفكّر بأيام ربّما ستغدو أجمل، وخائفة من واقع سيسرق منها حلم كان يوماً جميلاً، حائرة من حبّ سيكبر في واقعها خائفة عليه من غدر الأيام، خافت أكثر أن تغدرها دمعتها اللئيمة وتنسكب لتفضح شوقها إليه، فهي الآن بالذات لا تريدها ولا تريدها أن تظهر لأي كان.

انتهى الاجتماع بسرعة وغادر الجميع ما عداه ظلّ متسمّراً أمامها، يحاول الغوص في أعماقها، يحاول الكشف عن ماهيتها، لماذا هي بالذات اختارها القدر لتكون شريكته في الأحلام على مدى خمس سنوات. وهي صامتة لا تدري أتبدأ الحديث أم تترك له البطولة ليلعبها كما لو كان في أحلامها، أتركض إليه وتضمّه لتشمّ عطره الذكوري، أم تحتضن خيبتها وتبقى على صمتها إلا أن يكسره هو، وبالفعل هو كعادته من يبدأ الحديث حين سألها عن اسمها.

- منى...

- منى ... الأمنيات... وهل تراها تحققت؟؟

ابتسم تلك الابتسامة التي تذوب بها منى ففاجأها باسمه.

- مشعل.. أيعجبك؟

- اسم جميل.

وأزاحت بصرها عنه إلى الأرض خجلة من كثرة نظراته المتفحّصة.

هي تتوقّع أن له اسماً كهذا، فمن أشعل أحلامها بسعادة في ليلة قمرية قادر على إشعال واقعها حباً وأملاً.

obeikan.com

مدّ يده ليصافحها وحين مدّت يدها بعد تردد لم يدم طويلاً قبض عليها بحنوّ وظل يتأمّل عسل عينيها لدقائق إلى أن أفلت يدها ورحل كما جاء. من الباب هذه المرّة. لم يكن في غرفتها مرآة ليعبر منها.

أمسكت يدها وقبلتها، لمس يدها أخيراً، ويدها لامست يده، ساعة ... ساعتين ... وربما ثلاث ساعات .. وهي في صدمة لا تنس.

عادت إلى البيت بعد انتهاء دوامها، عادت وفكرها بما حدث لها، لم تركب الحافلة بل أحبّت أن تسير تحت مطر أبريل، تبث للمطر أفراحها وأحلامها، ومع أن البيت يبعد عن مقرّ الشركة حوالي الساعة والنصف سيراً إلا أنها لم تشأ أن تضيّع لنفسها فرصة كهذه، استطاع أن يسرق قلبها وتفكيرها أيضاً لم تحس بطول الطريق لأنه كان معها في كل ثانية تمضي.

لقد عرفها إذاً، كان يحلم بها كما هي كانت تحلم به، ثلاث سنوات انقضت على انفصالها عن أحمد، ثلاث سنوات ملأتها بالعشرات من الأحلام، ولكنه قالها لها بوضوح خمس سنوات وهو يراها أميرته، كانت ما تزال زوجة لأحمد وهو يراها أميرته في الأحلام، كم من الأحلام جمعتهم سويّة، كم ليلة التقوا سويّة، كم قلب رسموه.

وصلت إلى البيت أخيراً وطرقت الباب عدّة طرقات وكأنها هاربة منه أو ربما لتقرأ ما كتبته له، فتحت لها هبا الباب فأسرعت إليها وعانقت أختها فرحة بقدوم فارسها إلى أرض الحياة ليبث الحبّ فيها. عانقت أختها بكلّ قوّة وبدأت بالنحيب على ماذا؟ لا تدري، سمحت أخيراً لدمعتها التي خشيت من خيانتها أمامه، سمحت لها بالانسكاب. الآن ترافقها العديد من العبرات.

لم تفهم هبا ما حصل لمنى بعد، ولكن أدخلتها إلى الداخل وأحضرت لها كأساً من الماء البارد لترتوي وتخبرها ما جرى لها. قالت بصوت أشبه بالنشيج:

- رأيته أخيراً، رأيته يا هبا كما لو أنه في الأحلام جاءني، طوله الفارع، وسماره الخليجي، وابتسامته الجذّابة، ويده الدافئة، وليل عينيه الأسود. كلّها كما في الأحلام.
- من تقصدين؟ هل تقصدين فارسك؟
- نعم أقصده هو... عرفني من أول نظرة لعينيَّ التقت بعينه، أدام النظر إلي فأربكني، وأنا التي كنت أتمنّى هذه اللحظة، أقف صامتة اليوم لا أدري ما أقول له، لم يكفّ عن الابتسام لي، لقد قالها يا هبا

.. قالها أخيراً، لقد مضى عليه خمس سنوات وهو يلتقي معي في أحلامٍ عابرة.

- ما اسمه؟ ما عمره؟ لأي بلد ينتمي؟ ما عمله؟ حدّثيني مجمل التفاصيل، وإياك أن تنسي شيئاً.
- لم أعرف شيئاً سوى اسمه (مشعل) أليس اسمه رائعاً.

مشعل الذي أشعل لهيب قلبي بحبّه ولم يطفئه.

وقصّت عليها بالتفصيل الممل ما حدث معها مذ رأته إلا مغادرته لها.

في ذلك اليوم ولأول مرّة تجلس منى على طاولة الطعام مع هبا وزوجها مصطفى، كانت شهيتها مفتوحة، أكلت بنهم وكأنها كانت في مجاعة شديدة وخرجت للتوّ منها.

دخلت غرفتها في تلك الليلة وهي في أوج سعادتها، لم ترها هذه المرّة كسجن بارد لها، بل كانت دافئة، ربما لأن أنفاسه اقتربت منها، كان كل ما في غرفتها يوحي بحياة جديدة ... بالأمل ... بالحب.

أخرجت دفترها وتأملته لتشرع في كتابته وهذه المرة في واقعها تكتبه.

عدت يا حبيبي بعد ثلاث سنوات من صبرٍ لا يحتمل.

عدت ولم ينقص من حنان يديك شيئاً، كما عهدتها ما زالت دافئة.

عدت ورائحة عطرك ما زالت نفّاذة وكأن حضورك يغطّي المكان.

ما أروع ظلام عينيك السوداويين وكأنهما ليل لا ينجلي، كانت ترمقاني بنظرة لم أر مثلها أبداً.

وابتسامتك الجذّابة التي ارتسمت على محياك ألا تدري بأنها ارتسمت أختها في قلبي أنا.

ما أجملك بذلك الزيّ الخليجي وكأنك فارس بلا فرس، تريد امتطاء حصان أصيل في صحراء مقفرة وعلى يدك صقر جريح.

آه يا فارسي لم أتوقّع أن أكتب عن أشياء حصلت في الواقع مع أني رغبته وبشدّة، لم أكن على علم بأنك ستأتي في يوم من الأيّام ومع ذلك كنت جاهزة لاستقبالك في أي وقت ترغب بالحضور، كنت على أمل بمجيئك، كنت أترقب زيارتك لي بأقرب وقت، في لقاءنا الأخير حين كنت تبكي في أحضاني عرفت حينها أنك تبحث عني وأنك بحاجتي كما بحاجتك أنا.

لكن اليوم بالذات لم أستطع أن أحبّك كما في الأحلام، لم أستطع أن أهبط في أحضانك، ربّما هو خجلي وحيائي منك، وربما لأني صدمت مذ رأيتك.

لم يعد يعنيني شيء سوى لقياك مجدّداً، لكن .. أرجوك . كفّ عن العبث في أحلامي فها أنت ظهرت رجلاً فاق كلّ الرجال، فابقى في واقع سيغدو أشهى لكلينا.

نامت تلك الليلة نوماً متقطّعاً، كانت تستيقظ على ذكرى أيديهما معاً وتنام على هذه الذكرى، لا تريد أن تفقد بريقها، فتعود وتغوص في بحر النوم دون أن يهمها إن اجتمعا في ذلك الحلم الذي لم يبدأ بعد، وربما لن يبدأ أبداً، فهو جاءها واقعاً، استطاع أن يحيل أحلامها إلى واقع حقيقي وليس خيال، لقد كان رجلاً بالفعل، لم يهرب منها إلى المرآة بل هرب إليها.

كانت ابتسامته كفيلة لتعرف أنه لم يحبّها في أحلامه فقط بل كان ينتظرها في واقع لا يدري متى سينشأ، ماذا كانا يفعلان في حلمه معاً؟ هل قبّلها؟ كم مرّة احتضنها؟ هل مسح دمعها المنسكب بكثافة؟ كم مرّة وعدها بحبّ لذيذ؟ هل ربت على شعرها؟

ملايين من الأسئلة انهمرت عليها، تودّ أن تسأله عنها لتعرف عنه الكثير، والكثير ما زال غامضاً لها.

هل جاء إلى دمشق بحثاً عنها؟ أم أنها صدفة من القدر، هل يهمه أمرها إلى هذا الحد ليترك دياره ويأتي إليها، هل عرف أنها من دمشق لذلك جاءها أم أنه لا يدري من أي دولة هي، كما أنها لا تدري من أي دولة نشأ وترعرع، ولولا زيّه الخليجي ما كانت لتعرفه.

جلست على حافة السرير قليلاً، نامت على ظهرها، نامت على جنبها الأيمن، التفتت ونامت على الأيسر، وضعت يديها تحت خديّها وكوّرت جسدها. سارت في الغرفة جيئة وذهاباً، جلست على طاولتها قليلاً، وقفت أما المرآة العرجاء، ابتسمت لمنى فكأنها تودّع أحزان لتستقبل أفراح، أطلّ الصبح عليها من النافذة لتبتسم بكل سعادة، ارتدت ملابسها على عجلٍ، فربّما سيأتي إليها وكله حنين، اختارت ملابسها بعناية فائقة، ارتدت أجمل ما لديها من فساتين، سرّحت شعرها وجعلته على كتفيها يسير كشلال غزير، تناولت فطورها هذه المرّة بصحبة هبا وقبّلتها على خدّها لتنطلق إلى عملها مسرورة كما جاءت منه.

توقّف شتاء ابريل ولاح لها قوس قزحٍ يحييها بألوانه السبعة الزاهية، بين جبال قاسيون كان يطل وكأنه بريشة فنان قد رسم، كانت شاردة وتائهة كعادتها التي بدأتها مذ أول حلمٍ التقيا.

وصلت إلى مقر الشركة ودلفت إلى مكتبها وهي في سعادة الآن تدري مصدرها، ستراه ولكن لا تدري متى سيكون اللقاء الثاني الذي سيختاره القدر، هل يكون يحب الغياب أكثر من الحضور كما لو كان في أحلامها؟ هل يعشق الغموض ويحب التخفّي والهجر؟ هي لا تريده قاسياً كما كان قبل أن تعرفه، تريد أن تنهل من حبّة لترتوي.

انكبّت على عملها وشغلها الشاغل فارسها مشعل، وأصبح لهذا الفارس اسم تعشقه هي ، اسم يحتويه ، اسم يشعل حياتها حبّاً وهياماً.

***

خرجت من الشركة عصر ذلك اليوم بعد أن أنهت دوامها لتراه واقفاً بطوله الفارع أمام سيّارة فخمة، يعتقد أنها له، ما زال كما البارحة عيناه لا تبارح عينيها العسليتين، مبتسماً ابتسامة يسقط القلب لها، حيتّه بابتسامة خجولة ظهرت على محياها ولم تقف بل تابعت سيرها البطيء وعيناها على الأرض مثبتتان، كان في داخلها العديد من الأسئلة لكن

حين تراها يكون الصمت سيّد الحضور، تنتحر الكلمات وتحتضر الحروف في حضرته، فلا يبق أمامها سوى بقايا من ابتسامات الأمس.

أوقفها حين أمسك يدها وطلب منها أن يوصلها في سيارته السوداء كظلام عينيه، وافقت على مضض بعد تردد ليس بالكثير ومع أن قلبها كاد أن يسقط فرحاً إلا أنها تظاهرت باللامبالاة مراعاة لكبريائها الذي فاق كبرياءه، فقد وجدتها فرصة لتسأله عن أسئلة ما زالت تبحث عن أجوبتها.

جلست بجواره في حياء، كان ينظر إلى الطريق حيناً وإليها أحياناً، لم يكن يراها فتاة عادية، كان يراها أميرة فاقت كل الأميرات بحسنها وجمالها، كيف لا وهي التي غيّرت كتب التاريخ حين جاءته بالأحلام تطلب حبّه، لم يصدّق بعد بأن أميرته الآن بجواره وليست في حلم مجهول المعالم، لم يسألها عن مدينتها فهو علم بأنها من بلد الياسمين، فهي نقية كياسمين دمشق، خجولة كدمشق حين ترتدي الأبيض، غامضة كبردى، شامخة كقاسيون، عميقة كحاراتها القديمة، بائسة كشتاءها، جذابة كحدائقها. كان الصمت كفيلاً لأن يحدث ضجة في قلبيهما معاً.

هذه المرّة هي من شقّت جدار الصمت وليس هو حين سألته عن مدينته، فأجابها جواب الواثق (دبي).

عرفت الآن دولته فأنّى له كل هذا الشموخ إن لم تكن دبي موطنه، أخذ منها الاعتزاز بنفسه ... الشموخ ... الكبرياء ... الأناقة ... كلّها تحكي قصّة مدينة اجتمع فيها هذه الصفات.

من دبي بلد الشموخ إلى دمشق بلد الياسمين ترويان قصّة حبيبين بدأت في الأحلام ونمت في واقع هو أبعد ما يكون عن دبي، إنه في دمشق موطن الحب والألم.

الآن باتت تعرف اسمه وموطنه ولكنها خجلة لتسأله عن المزيد، وهو ما زال غامضاً كالبحر، عميق كالوادي، تتمنى الخوض في ذهنه لتعرف ماذا يفكّر الآن.

أمّا هو فقد كان الوضع مختلفاً، عرف عنها كل شيء في وقت أقصر من القصير، استطاع إحضار لمحة ذاتية عن حياتها من مصادر موثوقة.

شكرته قبل أن تترجّل من سيارته وودعته بابتسامة ارتسمت على محياها.

ودخلت البيت سعيدة لاقتحامه عالمها الواقعي، سعيدة لأنها سمعت صوته، مع أنه لم ينطق بالكثير فقد أشبع رغبتها في ذلك.

دخلت عالمها الذي كانت تحسبه سجنها، لكنه الآن منبع سعادتها، رقصت على رؤوس أصابعها وهي تدندن بأغاني الحب، هذا الحب الذي اقتحم عالمها من جديد، حطّم حصون قلبها ودخل دون هوادة بلا استئذان.

***

لم تملّ من الكتابة له، فبعد غيابه عن ساحتها قرابة الخمس شهور لم تجد سوى القلم سلواناً لوحدتها ولخيباتها المتلاحقة، حتى هجر أحلامها ولم يزرها مذ رأته في الواقع أوّل مرّة.

لماذا يا فارسي مشعل تختفي مجدّداً عن ساحة لقاءاتنا بعد أن صارت واقعاً؟.

لماذا تعشق لعبة الغميّضة معي؟ كنت في أحلامي هكذا؟ وكنت أظنّك طيفاً تهوى الابتعاد والهجر جيداً، لم أحسبك وقد صرت واقعاً تجيد لعبة الدور بطريقة احترافية أكثر.

عشقتك كثيراً لدرجة تعلّقي الشديد بك، وقد فرحت حين حولّت أحلامنا إلى واقعاً، هذا ما كنت أرجوه منك ومن الأيام، كنت أتمنى رؤيتك كي أتلمّس وجهك بيدي الباردتين على عكس دفء يديك، لكنك من الوصل حرمتني. وسددت جميع دروبك في وجهي.

أخبرني يا مشعلاً منيراً، يا من هويته في أحلامٍ عابرة، كيف السبيل إلى دروبك، ودروبك منتهاة بأشواك لا حصر لها، كيف السبيل إلى لقياك ونحن مذ التقينا أول مرّة من خمس شهور لم نلتقي فيها سوى مرّتين، عرفت منهما أشياء في غاية البساطة.

لماذا أنت مبهم إلى هذه الدرجة؟

لماذا لا أستطيع إلى الآن سبر أغوارك؟ لم أعد أفهم أسرارك الغامضة. أصبحت سرّاً أكبر بكثيرٍ مما كنت عليه.

أرجوك يا حبيبي يا من كنت حبيبي عد إليّ ولو في حلمٍ واحد لأعود وأحبّك من جديد. في كلّ حلمٍ كنت أراك فيه كنت أهواك أكثر .. انتظرك أكثر .. أشتاقك أكثر.

أغلقت دفترها وأودعته ذلك الدرج الحديدي وأغلقته بالمفتاح خشية أن يهرب هو والكلمات إلى عالم آخر، وكأنّها رسائل لم تكتب بعد، أو لم تصل بعد، رسائل تاهت قبل أن تعرف وجهتها.

كانت الأيّام أبطأ مما تتخيّل، كان يلعب معها لعبة الغموض، كان هو فقط من يحقّ له الحضور والغياب، هو فقط له الحق في أن يسأل ويستفسر ويحدّث، هي فقط من كان لها الحق في النظر إلى وجهه نظرات ما زالت خجلة تحاول العبور في أعماقه لتفهم من أي كائن جليدي هو، هي فقط من يحقّ لها الاستماع له، هي فقط من يحقّ لها الوقوف في محطّة الانتظار لعلّه يفاجئها يوماً بموعد دون انتظار.

من أيّ الرجال هو، وهل قسوته نشأت من صحراء بلاده، أم من جليد بلادها .

نسيت أن تخبره من أيّ برجٍ هو لتعرف كميّة الغموض الذي يكتنفه، ولتعرف كيف تفهمه ولتعرف كيف السبيل للتعامل معه.

رأته ذلك اليوم في تلك الحديقة الغنّاء التي اعتادت على ارتدادها لتصفّي ذهنها قليلاً من همهمات الحياة، وفي المقعد ذاته تحت ظل شجرة الزيزفون والتي رائحتها لا يعبق المكان فحسب بل الحديقة بأكملها،

جلس بجانبها دون استئذان فهذه عادته حين اقتحم أحلامها دون استئذان واقتحم واقعها أيضاً دون استئذان، لم يكونا هذه المرّة ينظران إلى بعضهم بل كان ينظران في نفس الاتجاه إلى مجموعة من الصغار يمرحون بالكرة سعداء لأنهم لم يفهموا بعد معنى الحب حين يجيئهم في الأحلام. وضع يده وراء ظهرها فسألها:

- كيف تبدو لك الحياة؟

- شهيّة حين نعيشها بحبّ، تعيسة حين نعيشها دون أحلام، قويّة حين نعشق التحدّي، جميلة حين نرغب بالمزيد من الحياة، خضراء حين نريد الأمل، باكية حين نتلذّذ بالآلام.

- والأحلام؟

- جميلة حين تجمعك بمن تهوى، في لقاءات مجهولة المعالم، حين تكون في عالم آخر ينتهي حال استيقاظك، تودّع عالمك الافتراضي لتغوص وتغوص حدّ الثمالة، تغرق في قاع الحب دون أن يلومك أحد على مشاعرك هذه، إذا أردنا استبداله بالواقع لكان أشهى بكثير.

- والكتابة؟

- هي عالم من أحلامٍ ثانية، لكن هنا نحن من نتحكّم في مشاعرنا، نوزّع دور البطولة على من نشاء ونرغب، هي خيال ثابت لا

يتحرّك مع الأيام، نبعد عن واقعنا بكل ما فينا، هو حبّ من نوع آخر، عشق لا ينفذ، حبيب يصبح بطلا لكل رواية نكتبها، نعشقه كما لو كان حقيقياً، بكل عفويته وبساطته يكبر معنا ويقتات معنا، تحيا كما تشاء وتختم قدرك وقدر من أحببت بلقاء يتّسم بالسعادة والهناء، لقاء في الأحلام وآخر متخفّي بين السطور بمساعدة قلم مداده لا ينفذ بسهولة لأن الأمر ببساطة مرتبط بعفوية تلك الأقلام جميعها التي استطاعت أن تحيل الحلم إلى مداد رسم درب الحلم اللامتناهي، فاختبئ الحبيب بين ثنايا الأحرف، واختبأت الحبيبة خلف ذلك العمود الفهرسي الطويل بعيداً عن عيون تترقّب لهم الشر.

- ومالك؟

هنا صعقها، فاجأها، كركبها، نظرت إليه بطرف عينها مرتبكة من اسم مالك الذي نطق به مشعل قبل ثوان، كيف عرف بأمر مالك العاشق من طرف واحد فقط، هل يدري فارسها ذلك؟ فهي وإن أحيت الحب في قلبه فهو لم يفلح بذلك لوجود فارسها في قلبها. ولكنها استعادت رباطة جأشها وثقتها بنفسها فأجابته ببرود وكأن الأمر لا يعنيها، أو أكل الدهر عليه وشرب.

- أحبّني جدّاً وتاه في هيامي، لكني لم أستطع أن أبادله نصف شعوره، لأني كنت هائمة في حبّ أحدهم، تعلّق بي .. متوسّلاً الحبّ مني، بكى كي لا أهدر حبّاً يجمعنا سويّة، ولكني كنت حينها أخشى التلفّظ بهذه الكلمة، وأخشى عليه مني أيضاً، خشيت عليه من الخيانة إن استمرّ حب ذلك الطيف في قلبي.
- وهل أحببت ذلك الطيف؟

صمتت بعد أن تورّدت وجنتاها خجلاً.

أمّا هو فقد فهم الإجابة فلم ينبس ببنت شفة.

وقبل وداعها استجمعت شجاعتها للمرّة الأولى وهو واضع يده في كفّ يدها فسألته بخجلٍ لم يخفى عليه.

- متى سيجمعنا لقاءٌ آخر؟
- دعيها تأتي صدفة.. لعلّ القدر يخبّأ لنا لقاءات وليس لقاء واحد. حين تشتاقين إلى رجل أحلامك اكتبيه ولا تترددي، استمتعي بالكتابة لتعيشي أنت لا غيرك، أكتبي كي تعشقي بطلك أكثر فأكثر، أكتبي حتى تملّك الكلمات ويهرب منك القلم، اكتبي كلّما رأيت

الفرصة مناسبة لتعبّري عن حنينك، لا تحبسي دموعك اتركيها تنهال على صفحات دفترك، اكتبي وجعك.

وغادر غامزاً إياها بطرف عينه اليمنى، وكأنّه انتصر عليها، على شيء هي نفسها لا تدري ما هو، المهم أنه هو فقط من خرج من المعركة منتصراً رافعاً رأسه.

يا له من غامض غموض البحر... لا لم يكن بحراً كان محيطاً عملاقاً، السباحة فيه شبه مستحيلة، والغوص في أعماقه من سابع المستحيلات.

ومع أن حوارها معه كان مختصراً كعادته إلا أنّها عادت إلى بيتها شبه مسرورة، فقد فتح أخيراً حواراً حقيقياً معها، حواراً يربط قلبيهما ببعضهما.

مشت في تلك الدروب وحيدة، لا لم تكن وحيدة، كان هو معها في خيالها يراقبها، يراقب قدماها أين تضعهما، يراقب صمتها الخجول، يراقب عينيها العسليتين اللتين كانت تخشى أن تطيل النظر إليه كي لا تفضحها أشواقها، مشت دون أن تتعب، لأن عقلها هو من يعمل عنها، فكّرت به كثيراً دون ملل.

كلّما حاولت الدخول إلى أعماقه كان يمنعها ويحصّن من جديد أسواره، ربّما يخشى مثلها أن تقتحم قلبه دون استئذان، وهو الرجل ذو الكبرياء الحاد والشموخ كأبنية دبي العملاقة ، فهو وإن حبّها حقّاً لن يضع قلبه تحت تصرّف قلبها دون أن يفهم أسرارها، دون أن يعرف ماهية تفكيرها، ومع ذلك كان يهواها كما تهواه، ولكن كانت تلزمه الشجاعة ليبدأ الحبّ معها.

وصلت إلى البيت وجلست على الطاولة دون أن تبدّل ملابسها فهي متعطّشة للقاء يدوم بينهم وإن كان على صفحات دفترها الصغير، وضعت دفترها لتكتب ولكن هذه المرّة الكلمات وحدها هربت إلى عالمه ليكتب هو بدلاً عنها .

فهي وإن كانت تهواه منذ ثلاث سنوات فصورتها محفورة في الفؤاد منذ خمس سنوات. فهو الأحق بالكتابة عنها منها.

***

وبدأ يكتب عن أحلام جمعتهما سوية قبل خمس سنوات ليجمعهم واقعاً من جديد بدا له شبحاً وليس أملاً.

أميرتي يا صغيرتي لم أكتبك يوماً لأني كنت أظنّك جنيّة تحاول اللعب معي.

في تلك الأحلام كنت فاتنة بفستانك الوردي القصير وكنت أشبه ببارببي ترقص بين الحقول، قبلّتك مرّات عدّة، أخذتك في أحضاني، رسمت لك درب الحبّ لتعبريه لا لتقفي حيث أنت.

أرى في كلامك كفراشة قيّدتها الأغلال، وفي صمتك كل لغات العشق تتحدّث.

أراك صامتة كل الأحيان، توّاقة لفتح أحاديث معي ولا تدرين كيف تكسرين ذاك الصمت المحيط بك. أعلم أن صمتي يرهبك، ولكني خائف يا حبيبتي. خائف من حبّ يعيد لي الخذلان من جديد. وحين أخبرك عن خيبتي أخشى من نظرات الشفقة تطلّ من عينيك، وهذا ما يرعبني يا صغيرتي.

أدرك تماماً أنك مررت بتجربة حبّ فاشلة كما مررت أنا في تجربة مماثلة، وابتعد قلبك عن شيء اسمه الحبّ، وهربت إلى أحلام تعيد لك ما سرقوه منك في الواقع.

أنا لا أرفضك يا عزيزتي ولكني أخشاك، أخشى من الاقتراب منك أكثر من ذلك، وأخشى الابتعاد عنك فتضيعي في زحمة الأقدار والحكايا. فأنا تائه في متاهاتك الكثيرة.

حين تتملّكني الشجاعة لأفتح الحديث معك أغوص في نهر عينيك العسليتين وكأن الله خلق بهما أنهار الجنة كافة، أهيم بهما عشقاً ولا أدري أين تهرب الكلمات.

صغيرتي كنت معي على مدى خمس سنوات، كنت مشتركة بين امرأة الطيف وامرأة اللغة، كلّما أحاول كتابتك كنت تصرخين في أعماقي رافضة أن يكتبك أحد، رافضة أن تشتركي أنت واللغة في الإيقاع ذاته، أردت لنفسك أن تكوني امرأة حرّة، امرأة من لحم ودم تعيش في واقع سخيف، امرأة من ورق ربّما تموت حين تتنصّل اللغة ويهرب الحرف، امرأة من طيف تموت حال استيقاظنا.

وضع القلم جانباً، ووضع رأسه الذي كاد أن ينفجر بين يديه كأنه يحميه من ذكريات تهاجمه.

لا يعلم كيف ستسير أموره فيما بعد، لكنه كعادته تركها للقدر.

هل يهمس لها بكلمات العشق؟ أم ستفهم لوحدها عشقه لها.

كبرياءه أعند من كبرياءها، يريدها ملكاً له ولكنه يخشى البوح بما في أعماقه لامرأة كانت طيفاً وأصبحت لغة والآن وهي ماثلة أمامه يحضر الصمت فجأة ليصفقوا له ويبدأ هو بالحديث. دفن أشواقه المخزّنة في قلبه لمدّة خمس سنوات وها هو يعيد دفنها من جديد، لئلّا يفضحه الحنين.

***

أرهقها هذا الحب.. دمّر كيانها .. استنزف أيامها .. هدر طاقتها .. أضاع حياتها .. عبث بأحلامها .. حوّلها إلى وردة محتضرة في أرضٍ قاحلة، حوّلها إلى فراشة مقصوصة الجناحين.

عادت تحلم به من جديد، ولكن هذه المرّة في يقظة أحلامها، هي تريده طيفاً لتسعد بحبّه أكثر، تريده فارس لغتها تكتبه كما تشاء، وتمحوه متى تشاء، هي من خلقته حين دعت القلم ليكتبه، فحمّلت ما شاءت من الصفات الرائعة، رافضة تمرّده عليها، كانت تهدّده بالممحاة إن عصاها، فهي سيّدته شاء ذلك أم أبى.

اشتدّت بها الوحدة كثيراً مما دعاها أن تعانق ظلّها بالمرآة فهي من شهدت عزلتها هذه ووحدتها وآلامها.

يا إلهي كم اشتاقت للحظات تعانقه به، أليس أولى من أن تعانق روحها في المرآة. في السنة ثلاثمائة وخمس وستون يوما، اثنا عشر شهراً، أربعة أسابيع، سبع أيام، أربع وعشرون ساعة، ستون دقيقة، ستون ثانية، أتبخل عليها الحياة بدقيقة واحدا يتعانقان فيها ظلهما سوية.

تذكّرت تلك الليلة حين دخل مرآة غير هذه، لم تستطع اللحاق به حينها، لم تدري بأن هذه المرآة دربه إليها، من خلال قساوة المرآة جاءها ليظهر أشدّ قسوة من المرآة، يبخل عليها بعواطف هي أحقّ من غيرها بها، إلى الآن ما زال رافضاً الاعتراف بحجم أشواقه لها.

إلى متى سيطول انتظارها هذه المرّة، إلى متى ستبقى أسيرة حبّه وهيامه. لم تدر بأن قلبها بات مغرماً به إلى هذه الدرجة، ويدقّ لأجله في الثانية آلاف الدقّات كلّها تهمس باسمه، مشعل فارسها العربي الأصيل الذي جاء إليها دون فرسٍ ... دون سيف ... جاء إليها محمّلاً بأشواق لا حصر لها.

وها هو عاد إليها في واقع أشبه بالدراما العربية، في واقع بات غريباً عليها، وفي أحلامٍ باتت مألوفة لديها، وكأنّها لا تعرفه بتاتاً، إنسان جامد لا يبالي ينظر إليها في الدقيقة ستون مرّة وكأنّه يريد الغوص في أعماقها، يريد أن يعرف ماهيّة تفكيرها. يريد فهم أسرارها العميقة فعبثاً يحاول فيفشل.

أتنسى اللقاء الأول وكفّ يدها تعانق كفّ يده، حينها لم تشأ أن تغسل يدها خشية أن تهرب ريحة عطره التي سبقته وعبقت المكان قبله، اهتزّ حينها جسدها بارتعاش، فقضى على كلّ تمرّد بدخلها، كانت حينها ستقفز كما الأحلام إلى أحضانه باكية فهي كانت في حالة شوق فظيع. لكنها لم تستطع بسبب نظراته الثاقبة كنسرٍ يبحث عن فريسة.

في تلك اللحظة وحين توقّفت الساعة لبرهة من الزمن خافت منه كثيراً وهي التي كانت تتمنى كثيراً أن يجتمعا في واقع أقرب إلى الخيال. لأوّل مرة تخشى منى مشعل الذي أشعل أحلامها قبل أيامها، فهي إلى الآن لا تدري بحقيقة تلك المشاعر الظاهرة منه، أو التي لم تظهر بعد، كانت تخشاه بقدر ما يخشاها هو.

وكأنّه في أحلامها عاد... لم تتغيّر طباعه عمّا بات عليه.

كلّ ستّة أشهر يراها... يبادرها حديث جليدي... ويختفي خلف الغياب.

هل عاود الدخول في مرآته من جديد، أم أنه رحل إلى بلادٍ أشبه بالأحلام.

ولكن لماذا حين يغيب تلك المدّة بأكملها لا يظهر لها طيفاً يحتويها في أحلامها.

لقد انتهى ذلك الدفتر وأحضرت بدلاً عنه دفاتر كثر، ففارسها أصبح لغزاً مبهماً لن تكفيه دفاتر الكرة الأرضيّة قاطبة لتكتبه.

من أين تبدأ الكتابة؟ هل تبدأ بطيفِ رأته في ليلة شتويّة قارصة البرودة يقبّل كفيّها وعيناه تنهل بالعشق اللذيذ؟ أم تبدأ بفارس عشقه قلمها قبل أن تعشقه هي، يختفي ويغيب كما يحلو له بين السطور، أم تبدأ بمشعل الحبيب الذي تهواه فيعجبه حبّها له فيتدلل عليها ويحترف الهروب منها، ويظهر كلّ بضعة أشهر مرّة يعاود الغوص في أعماقها من جديد ثم يختفي دون ترك أي رسالة وداع، في كلّ مرّة يحاول كشف صمتها، يحاول فهم آليّة تفكيرها، ينظر إلى وجهها مئات المرّات، ينهل من عسل عينيها، يتفحصها من خلال ظلام عينيه ، يعاود التدقيق في وجهها ، يسألها أسئلة مبهمة، فتجيبه أجوبة مختصرة.

في كلّ مرة تكاد تصرخ في وجهه أن يزيح نظراته القاسية واللامبالية عنها، أن يضمّها إلى صدره ، يسمعها كلام الغزل كما لو أنهما بطلان في دراما تركيّة، تريده حبيباً ذا كلامٍ معسول .. غزله .. عشقه .. اهتمامه .. دفئه .. حنانه .. عناقه .. قبلاته .. كلّها ما زالت تتمناها، فلماذا يحرمها منها الآن؟ أليست كافية عليه خمس سنوات من الحرمان يراها في أحلامه. أليست وقت كاف ليكتشفها؟ لماذا يضيّع الآن سنوات من عمر جديد؟ عمر يعيشونه بصفحة جديدة بحب وعشق جديد خالية من أيّة أحلام مستحيلة أو اكتشافات غامضة.

حاولت أن تصرخ في وجهه مراراً:

كفى ... افهمني ... وكن حبيبي ... فأنا لم أكن طيفاً يوماً ولن أكون، لم أكن حرفاً تكتبه ولن أكون لغة تختارها أنت ، أنا منى حبيبتك من لحم ودم، أنسى خمس سنوات من الأحلام وفكّر في يومٍ واحد نجعله كما الأحلام، بإرادتنا نحيله كما نشاء ونرغب.

لكنها لم تجسر على ذلك فصمتها كان على أشدّه . كيف لا وهي ما زالت تخشاه.

وهو لم يفهم صمتها كعادته، وعاد من جديد ليقتحم سكينتها ويدقق في لغز عينيها، يحاول أن يفهم، ولكن عبثاً يحاول.

لماذا هي بالذات من اختارها القدر ليعلنها أميرة في أحلامه لسنوات عدّة.

وها هو يكتشفها اليوم ولأوّل مرّة ... فتاة لا تريد منه شيء سوى منحها لحظة حب ولو كانت في حلم جديد. فهل هذا بالمستحيل عليه وهو الذي أحال حلمها إلى واقعاً.

***

هذه المرّة طال غيابه لم تره قرابة السبعة أشهر، ومع ذلك كانت سعيدة بقدر ما هي حزينة، كانت تحاول أن تختبر عشقها له، تختبر سعادتها معه. لذلك كان باستطاعتها مراسلته فالآن هي تملك رقم هاتفه الخاص وعنوان أيميله وحسابه الفيسبوكي حتى عنوان الفندق ورقم الغرفة تعرفه، ولكن لديها كبرياء يقف لها بالمرصاد دوماً، لم ترض أن تهان كرامتها فتبعث له برسالة قبل أن يراسلها هو ، فهي لا تدري ما الفكرة التي سيأخذها عنها إن هي باشرت بمشاعرها قبله، كانت تريد أن تتأكّد

من حبّها له أوّلاً، فهي متأكّدة من مشاعرها منذ أول لقاء جمعهما في الحلم الأوّل، بقيت مشاعره المبهمة والرافض البوح بها أو إظهارها لها.

عادت إلى أحلامها فهي نافذتها الوحيدة التي تستطيع من خلالها أن تحتفظ ما لم تستطع الحفاظ عليه في أرض الواقع، أو من سلبتها الحياة منها عنوة، الأحلام نافذتها للخروج من عذلتها ولترسم لها دروباً في الحب تسير بها متى أرادت، ولكنه حتى في أحلامها بخل بالعودة إليها. وحتّى في أحلام اليقظة كانت تخشى أن تتمادى فيها كي لا تهوى رأساً على عقب.

لم تجد أمامها سوى قلمها لكتابته، فاكتفت بسطرين فقط، هي حائرة لا تدري كيف تبدأ؟ تمنّت لو تقتله فيها، مزّقت ما كتبت إلى أشلاء صغيرة. استطاعت قتله في لغتها، في دفترها ذبحته وشيّعته دون جنازة تليق به، باتت تكرهه كثيراً وتحقد عليه أضعافاً مضاعفة، باتت تلعنه في كل مرّة تطيل النظر إلى تلك الساعة الهرمة والتي بنت العنكبوت بيتها عليها فتركتها تكبر وتنجب أطفالاً بعدد انتظارها له.

نامت وهي متعبة ، تتمتم باسمه ، كرهته إلى درجة العشق الذي جمعها به، وها هو ما زال يعيش بين شفتيها كلّما طبقتهما همست باسمه.

***

حين وصلت إلى عملها صباحاً وجدته بانتظارها ولكنه لم يكن فارسها بل كان عاشقاً أحبّها أكثر من فارسها نفسه ولكنها رمت بحبّه عرض الحائط لتنهل عذاباً من أوهامٍ في الحب تعيشها.

- صباح الخير منى.
- أهلاً.. ما الذي جاء بك إلى هنا.
- أشواقي وحنيني ألا تكفي.
- ولكني أخبرتك بأن قلبي مرهونٌ لغيرك.
- لطيفٍ في أحلامك، أم لشخصيّة ابتدعتها في رواية من رواياتك القصيرة.
- لواقع بات لي، لحلم تحوّل إلى واقع لذيذ، إلى بطل رواية خلقته من أحرف فنضج وخرج من الورق لأعشقه أكثر من ذي قبل.

نظر إليها نظرات حزينة ذات معنى ، أيحق له أن يبكي الآن بعد أن شيّعت حبه إلى مثواه الأخير، أيحق له أن يبكي بعد أن رفضته للمرّة العاشرة على التوالي، أيحق له أن يبكي بعد أن طعنته بالخنجر ذاته من

جديد. من هو هذا الفارس الذي ظهر له فجأة وبات أقرب لها منه. من هو ليراه رجلاً منافساً شريفاً كما أراد لا طيفاً في أحلام.

وفي غمرة حديثهما المتواصل ظهر فارسها من حلف شجرة الجوز شامخاً كالنسر، زائراً كالأسد، هائجاً كالمحيط، إذاً هو لم يغفل عنها فهو يراقبها ليحميها فتبقى ملكاً له كما كانت منذ زمن.

أمسكها من معصم يدها بقوّة وسار بها بمسافة ليست بعيدة عن عيون مالك الذي كان يراقب ويستمع، لم تستطع أن تفلت معصمها من يده الضاغطة عليها كان كالإعصار في هيجانه، أسند ظهرها إلى الجدار حين وقف قبالتها ويده ما زالت تضغط على يدها بقوّة، ربما يخشى من هروبها غير المتوقّع، زفر بعصبية، وهي ما زالت كالبلهاء لا تفهم شيئاً سوى النظر إلى جمرة عينيه الملتهبتين، لوّح بسبابته بالهواء محذّراً إياها من الوقوع في حبّ مالك أو التحدّث معه أو الوقوف معه حتّى، فهو رجلُ ويفهم ما يدور في خلد الرجال. يعلم تمام العلم بأن مالك ليس زميلاً كان لها فحسب بل هو حبيباً، عاشق محترف لا يملّ ولا يكلّ إلا أن يصل إلى مبتغاه، ومنى فتاة طيبة، ربما في لحظة ضعف تسلّمه مفاتيح قلبها، وهو إلى الآن ما زال معتبراً أن منى ملكه وحده هو الأحقّ

بها، لا يريد التفريط بحبّ كهذا، يريدها أن تصبر قليلاً، ليختبر مشاعره أكثر، ليراها هل تصلح أن تكون واقعه بعد أن كانت جلّ أحلامه وأيّامه.

قفزت دمعتها اللئيمة حين سألته بكل براءة

- لماذا؟

فقط لماذا؟ سؤال وجيه يطرح له. ماذا تعني له الآن ليقوم بما قام به، حبيبته أم فتاة أحلامه. تفرّس في وجهها قليلاً وغاص في كحل عينيها فابتعد قليلاً وهمس

- لا أدري.

ومن ثم عاد واقترب قليلاً ومسح دمعتها الهاربة قائلاً لها بالحنان الذي اعتادت عليه في أحلامها

- لا أحب رؤية الدموع المنهمرة من عسل عينيك.

ورحل كما جاء وغاب بين الزحام، حاولت أن تستوقفه لتفهم موقفه من حبّهما ولكنه كعادته كان توّاقاً للهروب أكثر من الحضور، حاولت أن تناديه فيكون لها حبيباً ولا يختفي كما عهدته. لماذا كلماته تحتاج إلى

obeikan.com

اجتماع للجامعة العربية لتفهم ما يتفوّه به، ألا يفهم كم تهواه هي، لماذا لا يحادثها بحبّه؟.

انتهت من صراخٍ في قاع أعماقها ليلفت انتباهها مالك وهو واقف تحت ظل شجرة الجوز الوارفة الظلال مستنداً بجذعه عليها، ناظراً إليها نظرة المودّع.

حين همّت بالاقتراب منه، كان هو قد فهم كل شيء، وابتعد خطوات إلى الوراء وتلتها خطوات لا عدد لها، غاب عن ناظريها إلى الأبد، غاب من حياتها كما جاءها عابر سبيل ورحل.

ولكن عابر السبيل الرافض للرحيل هو مشعل فارسها المغوار، ابتسمت لغيرته عليها ولاهتمامه بها، تأكّدت من لحظة طيشه هذه كم يهواها، لكنه جبان لا يعرف كيف يصرّح عن عشقه لها.

وقررت أن تكتب له بدلاً من أن تكتبه، فماذا تريد دليلاً أقوى من هذا الدليل على حبّه لها، وإن لم يصرّح علناً بمشاعره فهي لم تعد لها مبهمة.

***

وحيداً كعادته في غرفته الكبيرة ذات الأثاث الفخم في مسقط رأسه دبي. يتذكر تلك الخائنة والتي أفضت به إلى تلك الأحلام.

استلقى على السرير الكبير على ظهره وعيناه على فضاء مجهول مثبتتان.

بدأ شريط ذكرياته يتسلسل في ذهنه من أمامه يمر وكأنه في سينما، يتذكّر حين وثق بها وكيف وثق بها؟ كيف وثق بحبّ امرأة أعطاها كل ما يمكن أن يعطيه رجلٍ لامرأة من حلي وسيّارات حديثة وعقارات كثيرة ورصيد في البنك كبير ولم يبخل عليها بحّب أغدقها به. كيف لا وهي معشوقته الأولى ولكنها ربّما لن تكون الأخيرة.

ومع كل هذه الإغراءات خذلته وهربت من أحضانه إلى أحضان من هو أقلّ منه مكانةً وجاهاً وشأناً، كيف له أن يسامحها على ما فعلت بقلبه. كيف له أن يسامح جميع نساء الأرض باعتباره كان يراها بكل نساء الأرض، كيف له أن يوثق بمنى من جديد، وقلبه ما زال يقتات مع من رحلوا.

أحبّها حين كان فتى صغيراً وكانت تعجبه كثيراً بكل شيء، كالطاووس في غرورها تسير، أعجبه هذا الغرور كثيراً، فلم يدري بأن العواقب

ستجرّه إلى عوالم خيانة لا يستحقّها، وكبر حبّه مع الأيام وأفصح لها بمشاعره الجيّاشة نحوها حين كان في الجامعة. عاش أروع قصّة حبّ معها دون درايته بوجهِ ثانٍ تملكه، ومع كل هذا الحب خذلته وضربت بحبّه عرض الحائط، لم يكن يعلم أن تلك العيون الجريئة لم تعشقه يوماً، بل عشقت محفظته الممتلئة، وسيّاراته الحديثة الفخمة، ومشاريعه التي لا تنفذ.

فكيف لقلب خذل هكذا أن يعود لعشق جديد، وأنّى له أن يعرف بأن منى تختلف كل الاختلاف عمن خانته، ولكن منى لم تقتحم حياته بقدر ما اقتحمت عالم أحلامه.

كيف لهذه الصغيرة الصامتة كعادتها، أن تتسلل في جنح الظلام وتختبئ في حنايا أحلامه، كانت كالرصاصة الحيّة التي اخترقت عالمه. أحبها دون أن يراها واقعاً. كان ينتظرها كل ليلة كي تدفئ ليالي وحدته الحزينة، لكنها كانت خجولة تأتي حيناً لتغيب أحياناً.

لم يكن يعلم ما كنهها، هل هي جنيّة جاءت لتعوّضه عن خيانة تلك الحبيبة؟ أم هي حبّ جديد خجل يتسلل في هدوء الليل بعيداً عن المتطفلين، كي لا يوقظ النيام، فقط هو وحده من يحق له رؤيتها والاستيقاظ على جمال ابتسامتها، ليتساءل في الدقيقة الألف من تكون؟

وها هي الآن تقتحم عالمه كما اقتحمت أحلامه بالهدوء نفسه، والحياء يزيّنها. في حضرتها يهرول الكلام إلى المجهول، في حضرتها يختفي كل شيء. وتبدأ لحظات الصمت أبلغ من أي كلام، تعلو صرخاتهما سويّة في صمت يشقّ أنفاسهما، يجأر فيها كعادته فهو الأسد في زئيره وهي القطّة في ألفتها، يحملق بوجهها، يراقب تقاسيم تلك العينين، يقسم آلاف المرّات أنه رأى الجنّة في عينيها العسليتين.

عادت به الذاكرة سنوات إلى الوراء، ربّما ستّ سنوات وهي ليست بالقليلة، عاد من ليلته تلك وحيداً مكتئباً بسبب خذلان لا يغادره، كان الحنين لحبيبته على أشدّه، فكيف له أن ينسى من كانت له دواءاً وصارت داءاً. كيف له أن ينسى من شاركته أدقّ تفاصيل حياته، وكيف له أن يملئ فراغاً في قلبه الهشّ خلّفه غيابها.

غفا تلك الليلة قليلاً ليستريح من عبئ الحياة، حين رأى جمهوراً من الناس المتجمهرين وكأنّها مباراة لكرة القدم، وحدها من كانت تنظر إليه بابتسامتها الحزينة التي أصبحت عادتها مع الأيّام، كانت تصفّق بهدوءٍ وخجل على إيقاع أغنية شعبية، ترتدي فستانها الورديّ القصير ذو الأكمام القصيرة وشعر منساب كشلال رقراق على كتفيها.

التقت العيون لدقائق ربّما أحسّها ساعات فانتفض جسده وارتعشت أوصاله من جمالها الأخاذ، ومن نظراتها الهادئة، لم يستطع أن يبعد عينيه عن عسل عينيها، بل بدأ يتأمّل كل تقسيمة في جسدها الغض.

لم يجد تفسيراً لحلمه هذا في تلك الليلة الصيفية الحارّة، ظنّ بأنه رآها في مكان ما وزمان ما، فتعلّقت بذهنه لتتراءى له أميرة في الأحلام، ومع ذلك كان حلماً شهيّ المذاق.

ما زال شريط ذكرياته يدور ويدور كالإسطوانة القديمة ليعيد إليه أحلاماً عديدة جمعته بها لم ينساها ولم يسمح لقلبه بحذفها فهي كانت أجمل من أجمل واقع.

وقف شريط ذكرياته على ذلك الحلم بعد مرور أشهر على الحلم الأوّل. رآها ترقص فوق النيرات الهائجة كالأميرة البجعة، كانت حينها ترتدي ثوباً قرمزياً ذو دانتيل أبيض على حوافه وتاج مرصّع بالألماس يزيّن شعرها، انبهر من جمالها كجمال الأميرات وكانت حينها أميرة فعلاً، انبهر من رشاقتها وهي ترقص في دائرة من نار، كانت كراقصة باليه محترفة ولم تكن مجرّد هاوية، حاول هو أن يقترب منها ولكن حرارة النيران أمرته بالابتعاد عن ساحتها، كانت ترقص وعيناها لا تفارقه بابتسامتها الجذّابة، لم ينس أنه استيقظ تلك الليلة وهو يتصبب عرقاً ،

ربّما حرارة النيران دخلت حينها جسده لتستقرّ به وترتفع حرارته بدوره منشدّاً حبّا لا وجود له.

تساءل في سرّه ألف مرّة من تكون؟ من هي؟ ولماذا هي بالذات من يحقّ لها العبث بأحلامه؟ هل القدر من ابتعثها لتنسيه حبّ هارب منه؟ أم لينسى ليالي وحدته الكئيبة. بحق السماء من تكون؟

استطاع أن ينساها أو الأصدق يتناساها ليعيش في جوّه الحقيقي، فهو إنسان عملي واقعي، على عكس منى تعشق الأحلام والغوص في الخيال وهذا ما يجعلها في خلاف دائم معه.

مضت أشهر اختفت عن ساحته ولكنه كان حينها يطلّ في ساحتها هي إلى أن انقضت اللعبة ولم تنتهي بعد.

كانت تلعب معه كما يهوى اللعب معها، كلاهما محترفان في لعبة الأحاجي. أطلّت عليه في حلمٍ جديد، لتذكّره بأنها ستكون له في الأحلام ولن تكون له في الواقع.

كانا يتراقصان سويّة كعاشقين متيّمين، في رقصة ولهٍ لا تنسى، كانت يده اليمنى ممسكة بيدها اليمنى برفق أبوي ويده الثانية على ظهرها

العاري، وكأنّه يخشى مغادرتها قبل إتمام الساعة الثانية عشر نصفاً كما ساندريلا.

كان ثوبها الطويل الورديّ يظهر مفاتن جسدها، رقيقة ... جذّابة .. ولكنها همست له بكلمة لم يفهمها بسبب نبرة همسها المنخفض، ورحلت، تركته جسداً لا حراك وغادرت ساحة الرقص، حاول اللحاق بها فلم يرتوي بعد من عشقها اللذيذ. لكنها كانت أسرع منه في الهروب والتخفّي وكأنها سرقت عادته فصارت عادة لديها.

لجمالها جمال غرب لا يضاهى، فتاة من طيفٍ ونار، جنيّة ترقص فوق النيران أحياناً وأحياناً تختفي كما جاءت دون أن يعرف من أين جاءت؟

توالت الأحلام الغريبة، خمس سنين من الأحلام الغير محدودة، وتبهره كلّ يومٍ، بحبّ جديد .. برقص جديد .. بدفء جديد.

استطاعت هذه الجنيّة أن تنسيه تلك الخائنة، كما نست منى علاقتها مع أحمد حين تغلغلت في أعماق الأحلام.

مرت السنوات وهو يراها، أحياناً يقترب منها وأحياناً تهرب قبل أن يمسكها، يقبلها أحياناً وأحياناً تختفي خلف السحب، كلّ مرّة حلم وفي كلّ حلم تظهر له من جديد بشكل جديد.

كحورية البحر الصغيرة رآها على صخرة جالسة وقدميها تداعب بهما مياه البحر التي لا تنتهي، كانت تغمز له بطرف عينها اليسرى وكأنّها تغويه ليلعب معها، وكيف لا يقبل وهي الحبيبة الجنيّة من سلبت عقله في الأحلام قبل الواقع، لم يخف حين تقدّم منها، وما إن حاول لمسها إلا قفزت في قاع المحيط كسمكة تعرف العوم في عالمها دون أن تدري ما هو عالمنا.

لم يستطع الصبر أكثر من ذلك ماذا تريد منه هذه الجنيّة الصغيرة؟

أحضر المفسّرون من كل أنحاء بلاده ليفسّروا له حلماً بات تفسيره مستحيلاً، ولكنّهم بصوتٍ واحد أجابوه بأنّها أضغاث أحلامٍ لا أساس لها بواقعنا، ربّما حاجته لحبيبة تؤنسه في وحدته دفعته لتلك الأحلام، ولكنّه لم يصدّقهم كمنى حين كذّبت أختها وصدّقت قلبها، كيف له أن يصدّق ذلك وهي نفسها تقفز إليه في أحلامه كلّها دون استثناء. هي موجودة في عالمٍ ما، في مكانٍ ما، في زمان ما. هي تبحث عنه، أو ربّما هي بحاجة

إليه.. إلى دفئه .. إلى رجولته .. إلى أحضانه.. ولكن حينما صارت واقعاً حرمها من كل ما هي بحاجةٍ إليه.

وآخر تلك الأحلام وأجملها كانت في مسقط رأسه دبي قبل أن ينزل إلى دمشق.

رآها على ضفاف نهر بردى جالسة على حافته تبكي بحزن وألم، لم يحتمل عينيها العسليتين وهما مليئتان بالدمع كالعسل في عينيها، مسحهما بكل حنان وحب، ورفع رأسها بكلتا يديه لتواجهه ومسّد على شعرها بكلّ دفء، جلس بجوارها على الحافّة نفسها، نظرت إليه بعيون مثقلة بالأحلام وأعطته عقداً من الياسمين ولكنه ممزق قائلة له: الرياح الهوجاء مزّقت عقدي هل ستصلحه؟

سحب العقد من يدها وحاول أن يعيد إليه الياسمين الملقى على الأرض. ولكن من يعيد الحياة للياسمين وقد قتل وجرّد من شجيرته البائسة.

جذبها إليه أكثر وقبّل جبتها الصغيرة وقال لها بدفئه المعتاد: سأصنع عقداً آخر من الياسمين الدمشقي لتزيّني به تلك الرقبة الصغيرة.

انتهى ذلك الحلم حال استيقاظه، تذكّر تفاصيل حلمه كلّه وتذكّر أيضاً كلمة دمشق إذاً هي من بلد الياسمين، ها قد عرف أخيراً بلد محبوبته.

وخلال أسابيع قليلة كان في دمشق يبحث عن فتاة كانت له في الأحلام حبيبة.

فهي إذاً في دمشق.. هذا ما عرفه.. ولكن أين؟ ومن أين يبدأ البحث؟ وكيف يجدها؟ ودمشق ليست بالمدينة الصغيرة.

كان الأمل يحدوه كما كانت هي تعيش بالأمل، كانا يعرفان أنهما سيلتقيان في زمان ما وفي مكان ما من هذا العالم البائس.

ها هو كان رجلاً فعلاً حين بدأ أوّل خطواته وقت استقلّ تلك الطائرة مسافراً إلى دمشق في رحلة البحث عن فتاة توّجت أميرة له في الأحلام.

***

لم ينس ذلك اليوم حين تعلّقت العينان ببعضهما فاختلط سواد الليل مع عسل الجنّة، هي طأطأت رأسها خجلة بعكسه فرفض إبعاد عينيه ليعرف لماذا هي بالذات؟ بصدفة غير متوقّعة يراها متمثّلة أمامه كحورية من ذاك الحلم خرجت.

هدوءها يرعبه ... صمتها يسكنه ... نظراتها تحزنه ... كلّما حاول أن يقترب خطوة يبتعد خطوات، ها هي بعد خمس سنوات من اقتحام عالم أحلامه تقتحم بعفوية ولا إرادية عالمه.

وفي كلّ لقاء يجتمعان يتحاوران بهدوء والصمت هو ثالثهما، يختصر من الكلام الكثير لتتحدّث هي فيفشل، يحاول إغضابها بشتّى الطرق ليعرف كيف تتصرّف حين تشتدّ غضباً، فيذهله هدوءها الصاخب، يحاول أن يخونها وأمامها، فتتغاضى والدمعة على خديها وجدت، يتحدّث بفخر عن عاشقات وهميات ابتكرها خياله وكيف أحببن جسده العاري ويتمنيّن أن يبقيهن في فراشه لأطول فترة ممكنة فهو العاشق بلا حدود، لكنه يسكت حين تزداد دمعة عينيها بالانسكاب واحمرار خديها خجلاً من كلامٍ كهذا.

أهربت من أحمد لتحظى بآخر شبيه له ولكنه على خلاف هذا الأخير كثيراً فهو فقط يحاول أن يستنبط بما تفكّر.

كلّما يحاول أن يقترب خطوة تبتعد هي للوراء خطوات.

كم تمنّى لو يحظى بفرصة حضنها لكان نسي نفسه وحملها مجدّداً إلى غمار الأحلام، ليخلّصها من عناء هي فيه، لكنها ما زالت تخشاه بقدر

خشيته هو، فلم تفسح له المجال للمسها فهو وإن كان طيفاً قبل أن يصبح واقعاً يبقى رجلاً له ميوله ورغباته.

كان يعلم أنها تخشاهم، تخشى جمع الرجال كافة من وراء ما فعل بها أحمد، ولكنه كيف يقنعها بأنّه ليس كأحمد فهو فارسها في تلك الأحلام قبل أن يغدو رجلها في واقع سيغدو أروع من كل الأحلام.

لم يتّصل بها ولو لمرّة واحدة فهو يكره التكنولوجيا ويعشق الرسائل الورقية كثيراً، يحبّ المواجهة ليغوص في تلك العينين فينهل منهم ما يطفأ ظمأه فيستردّ شجاعته ويحكي معها، ولكن عن ماذا يحكي وهو الذي كان يهرب من كلمات الغزل والحب حين يلمح صمت عينيها.

فكرة الوقوع في الحبّ مجدّداً ترعبه، وكأنّها قيد يشدّ بإحكام على رقبته.

ولكن ما ذنبها هي إن جاءها في زمن خاطئ بعد أن سلخه الحب القديم وتركه مذبوحا على رصيف درب العشق، ما ذنبها إن جاءها وقد فعلت الخيبات به ما فعلت. ما ذنبها هي إن جاءها وقد فرغ قلبه من شيء اسمه الحب، لتستلمه هي خاوياً على عروشه لتبدأ بترميمه أوليس الأولى أن تبدأ بترميم نفسها.

نهض من فراشه بعد أن فرغ شريط الذكريات من عرض الأحلام والذكريات جميعها.

وجلس يكتب لها بدلاً من الكتابة عنها. فحبيبته من ذوات الخيال تهوى أبطال الروايات وأبطال الأحلام وقلّما يروق لها أبطال الواقع.

أيا حبيبة غفا القمر في حضرتها.. مرّة تخرج كحوريّة بحر صغير من قاع محيط مجهول تنظر بإغراء شديد لي وكأنّها امرأة العزيز تناديني هيت لك. ولكن يا أميرتي ما ذنبي إن كنت أجهل السباحة وأخاف أن تدخليني إلى سجون في أعماق المحيط موجودة، أخاف الولوج في عوالم لا أعرفها، فتعودين حزينة للقاع من جديد لأنّك لم تظفرين بفارسٍ مثلي.

ومرّة تبهريني برقص فوق النيران الهائجة، تمدّين يداً لتسحبيني كي أرقص معك فوق تلك النيران. ولكن يا صغيرتي ألا تعلمين بأنّي أخشى النيران الهائجة، من أدراك لربّما كانت جائعة فرغبت بجسدي كوليمة سهلة لافتراسها.

بالله عليك أخبريني من أنت؟

هل أنت مزيج من امرأة من نار وامرأة من ماء؟

أخبريني يا حبيبة بات القلب يهواها، كيف تمزجين بين الماء والنار.

هل أنت آلهة؟ هل أنت طيف؟ هل أنت جنيّة؟ هل أنت ملاك؟

من تكونين ؟

في حضرتك أُسكت جميع الأشياء لأسمعك أنت فقط، ولكن لا أسمع سوى صمت ناي حزين ولكنه صاخبٌ جدّاً.. صاخبٌ يا حبيبتي.

صمتك يا ملاكي يرعبني.. هدوءك يبعدني ويقّربني، معك فقط أصبح شخصان، شخص يعشق أميرة في الأحلام ويراها ملاكاً في واقعه، وشخصاً خائف من حبّ يتراءى له من جديد. من أجلك يا صغيرتي عشقت التضاد، اقترب وابتعد .. اهرب منك وأهرول إليك. أصمت وأتحدّث، أحبّك وأكرهك. هل تفهمين الآن أنك تعشقين ملك التضاد؟

كوني إذاً امرأة جريئة وصرّحي واصرخي وأخبريني عن مشاعرك التي تتضارب في فؤادك، اتركي العنان لمشاعرك لتخرج إلى فؤادي.

أتعلمين يا صغيرتي في آخر لقاء جمعنا، وتركتِ قلبي وحيداً على قارعة الطريق.. كنت حينها أحضّر الكلام المحرّم على كل نساء الأرض ما عداكِ. الكلام الذي أردت البوح به لك عن حبّ استعمر

فؤادي منذ سنوات، لكنك رحلت قبل البدء وبقي الكلام معلّقاً في حنجرتي ولا أزال انتظر لقاءاً يجمعنا حتّى أخبرك بما يعتلي صدري من مشاعر خزّنتها لك وحدك.

أيا حبيبة تمتهن الغياب سامحيني لأني لن أهواك كما تريدين وتعشقين، فقلبي قد مات منذ فترة بعيدة ودفن في مقبرة جماعية للخذلان، وجنازته لم يحضرها أحد. صدّقيني مات وحيداً ودفنته بيدي ولم يشاركني عزائه أحد، وقرأت له الفاتحة وجلست أمام قبره ليالي انتحب لوحدي.

***

لم تصلها تلك الرسالة أبداً والتي سهر ليله بكامله يكتبها له بمداد لا ينفذ بسهولة، لم تصلها لسبب بسيط جدّاً وهو أن فارسها استحوذ عليها، منعته أنانيته من إرسالها، ربّما خوفه من اكتشافها لمشاعره نحوها هي السبب، أو ربّما خوفه من عشق جديد يدمّر حلمه مرّة أخرى، فليبقها حلم لعلّها تكون أشهى وألذ.

وأيضاً هو بدوره لم يصله أية رسائل منها، ربّما هي أيضاً خافت من الانجرار إلى ساحة حبّ لا تجلب لها سوى الألم، وكبرياءها أيضاً لعب دوراً مماثلاً فكان لها بالمرصاد، كيف تفصح له عن مشاعر تحتاجها

وهو إلى الآن لم يخبرها من تكون بالنسبة له. فتاة أحلامه.. صديقته.. بطلة كتاباته.. حبيبته.. امرأته المستقبلية. كان جباناً جدّاً أجبن من البوح بمشاعره.

هل هي أميرته في أحلامه وأميرته في الواقع أم فقط في أحلام مجهولة لا سبيل لها؟

إذاً ما ذنبها هي إن كانت مشتتة وتائهة بين محاولات والدها والتي ما زال مصرّاً على عودتها إلى أحمد بعد الفضيحة التي تسببت بها له كما يدّعي هو على ذمّة الرواي ومن هو الراوي غير أحمد الذي شهّر بها لتعود له جثّة على هيئة عروس. وسيعيدها كخطوة أولى مرغمة إلى منزل طفولتها.

في كلّ مرّة تراه تحاول أن تستوعب مدى عمق فؤاده الجريح وهل يتّسع لأخرى لا تخون. تريد أن تفهم محاولاته المستميتة لاستفزازها، محاولاته الكثيرة للمسها، نظراته الجريئة المتفحّصة لكل خلية من جسدها، هي حتّى لم تفهم صمته الدائم.

أهذا هو الفارس الذي دعت الله مراراً أن يأتيها واقعاً؟

أهذا هو الفارس الذي تمنّت في كل مناسبة تكون فيها وحيدة أن يكون رفيقها؟

أهذا هو الفارس الذي دافعت عنه وعن حبّه فتلقّت أقسى كلام من والدها بسببه، وتركت المنزل كرماً له.

أهذا هو الفارس الذي جرحت مالك في قلبه ولم تؤلمها دموعه المنسابة؟

أهذا هو الفارس الذي هربت مراراً من أحمد وتقسم للمّرة الألف أن لن تكون له.

أهذا هو الفارس الذي جلست ليالي تنتحب ولهاً وشوقاً وحنيناً وحبّاً.

أهذا هو الفارس الذي كتبت له دفاتر لا تنتهي حبّاً وعشقاً.

أبى أن يأتيها في الواقع كما رغبت هي وتمنّت جاءها شخصاً مذبوحا لا قلب له.

أحلامنا تأتي بأجمل من واقعنا وحين يصير ذاك الحلم واقعاً يبدأ بدموعٍ لا حصر لها.

وكم من أحلامٍ تمنّت أن تحال إلى واقع، ولكن حين صارت واقعاً عادت تتمنّى أن تحال أحلاماً من جديد. أحلامٍ نتوسّدها .. ونعيشها ونخبّئها عن عيون الحاسدين والحاقدين.

فلكل شخص حياتان.. حياة يعيشها بواقعه كما يرغب القدر. يبكي وينتحب .. يضحك ويفرح فهو فيها مسيّر ومخيّر بآن معاً. وحياة أخرى يعيشها بملء إرادته في أحلامه، يتوّج من يشاء بطلاً لقلبه.

تذكّرت حكاية كانت ترويها جدّتها حين كانت صغيرة، وكانت تجلس في حضنها كل ليلة لتروي لها ذات الحكاية:

تتحدّث الحكاية عن فتاة صغيرة طيّبة لم يتجاوز عمرها عشر سنوات، تقف كل صباحٍ أمام نافذتها الكبيرة بعض الشيء تشاهد عصافير الصباح وهي تزقزق على نافذتها بألوان سبحان من أبدعها، كانت تتمنّى أن تصبح عصفورة كالعصافير هذه تلتقط الحبّ من يدي أحدهم وتشرب من ماءه العذب، تطير من درب إلى آخر ومن شجرة تين إلى شجرة زيتون، كل البيوت تدخل فتعرف أسرار العامّة دون أن يلاحظها أحد فهي عصفورة صغيرة ستكون. ستستقر في أعالي الجبال وتسبح في السماء سيكون لها أعشاشاً كثيرة في كلّ مكان.

إلى أن جاءت تلك الجنيّة الصغيرة والتي تماثل الفتاة بالعمر ذاته. ابتسمت لها وأدارت عصاها دورة كاملة لتحوّلها إلى عصفورة جناحاها كقوس قزح ووضعت تاجاً مرصّعاً بالياقوت على رأسها الصغير. وكان لها ما أرادت طارت إلى البعيد، لم تسعها السموات والأرض فحلّقت في كلّ مكان. نسيت تماماً أن للعصفورة أعداءاً كثر ومنها الإنسان، فما أن توقفت قليلاً لتنهل من فيض ذاك النبع وترتوي من ماءه العذب حتّى جاءها ذاك الصيّاد العجوز الذي يهوي صيد العصافير الصغار والنادرون منها، فاصطادها دون أن تبدأ بأغاني المرح والفرح، وقدّمها كهدية إلى الأمير الذي وضعها بدوره في قفص من ذهب وقدّم لها أطايب الطعام والشراب.

ولكنها صمتت عن الغناء وذبلت وكادت أن تموت وعاودها الحلم من جديد، عادت تتمنى أن تعود فتاة تتمنى أن تصبح عصفورة.

انتهت القصة هنا فها هي منى يعاودها الشعور ذاته أن تحلم به مجدّداً به، ففارسها في الأحلام أروع من فارسها في الواقع بكثير،

عادت تحلم أن تراه ولو في حلم قصير، كما عوّدها على رؤيته دائماً.

لم تكن تعلم أن حبّه سيقهرها إلى درجة التفريط فيه وهذا ما تفكّر به.

كم تمنّته؟ كم ابتهلت لخالقها أن يجعله بشراً سوياً، وكان لها ما تمنّت ودعت، ولكنه كان لا مبالياً إلى أبعد الحدود. وماذا تفعل بقلبها الذي يهواه ألف مرّة على ما يهواها هو؟ قلبها الذي ما فتئ يذكره في الدقيقة اثنا عشر ساعة.

تنهدت بعمق شديد وتركت دفترها لتغطّ في نومٍ عميق، متمنّية أن يأتيها في حلم جديد يخبرها كم اشتاقت روحه لروحها ولكن هيهات أن يأتي.

فالنوم أجمل ما يكون وهو الذي أضحى عادة من عادات منى منذ أول لقاء التقيا في الأحلام، ربما التقت به في المنام من جديد فماذا تريد بواقع لم تحظى معه حتى بالسلام.

***

مرّت الليالي عليها كسلحفاة هرمة وهي تنتظر موعد دفنها، وبدأت صحّتها بالتدهور شيئاً فشيئاً، حيث ذبل جسدها وعادت إليها الهالات السوداء تحت جفنيها، كوردة جفاها الساقي ولم تطالب بحقّها من الماء، ربّما ذلك يعود لفرط هجره الدائم أو لكثرة ما هرب من واقعها ومن أحلامها أيضاً، كانت تفكّر فيه وتتمناه ولو حلماً صغيراً أن يأتيها، كل همّها أن يعود عمّا كان عليه في أحلامٍ صغيرة متقطّعة، يغيب كما يشاء

ويحضر كما يشاء، ولكنّه بالنهاية يأتي ليحيل ليلتها الصاخبة إلى ليلة رومانسيّة من الدرجة الأولى، وهذا جلّ أحلامها.

وكثرت المشاكل بينها من جهة وبين عناد والدها من جهة أخرى، هو ما زال مقتنعاً بضرورة عودتها إلى أحمد ففكرة انفصالها عنه كانت بالأساس فكرة خاطئة، ولا يريدها أن تنجرّ إلى خطأ أكبر، فيكفي ما حصل للعائلة بسبب طيشها غير المبرر، هذا ما يعتقده والدها وإلى الآن لم يستوعب بعد ما حصل لمنى في بيت ذلك الشاب الطائش، وها هي المشاحنات تزداد كل يوم بسبب عناد كل من الطرفين وكل طرف يرى بأن كلامه هو الصحيح. وهي ضائعة بين الطرفين، أتذهب إلى فارسها وتخبره بما يحصل معها لعلّه يخبّئها بين حناياه كفراشة تخشى العبث بها، أم تخشى رفضه لها وهو إلى الآن لم يبدي استعداده لقول كلمة غزلٍ أو حبٍ في حقّها. كم هو بخيل هذا المشعل في عواطفه، كم هو بخيل في مشاعره، فقط نظراته هي الصادقة في كل ما تراه.

خرجت ذلك اليوم مسرعة وهاربة من واقع سيفرض عليها، كانت الدنيا بما فيها تفرض قيوداً عليها، وتضيق بها الدنيا أكثر مما ضاقت فتذهب إلى حديقتها والتي شهدت وحدتها كما شهدت أحاديث صمتها مع حبّها، اعتادت دوماً على رؤيته هنا حين يغيب وحين يحضر وكأنه يدري مدى

عشقها لهذه الحديقة فقرر هو التالي أن يعشقها لأنها معشوقة عشيقته. ورأته على ذاك المقعد الخشبي تحت ظلال الزيزفون، وبيده ورقة شجر صغيرة سقطت من أعالي الشجرة نفسها فلم يتحمّلها وهي ساقطة عليه فصبّ جام غضبه على الورقة ربّما كان حانقاً على الحياة، لمحت الورقة وهي تتفتت بين أصابعه، وهو من قسوته المعتادة لم يبالِ لها أو لم يرها وهي تحتضر ما بين الخنصر والبنصر، جلست بجانبه ربّما لتستمع إلى صمته الغاضب، تنتظر إلى متى سينتهي ويعطي الأمر بإعدام الورقة فرأتها تلفظ أنفاسها الأخيرة وهي ما زالت متشبثة بين أصابعه، رماها ودهس بحذائه اللامع عليها كي لا تحاول استعادة أنفاسها مجدّداً، كل ذلك قبل أن ينظر إليها بثوانٍ.

- كيف عرفت سبيلي

- ربّما هو إحساسي بحاجتك لمن يستمع إلى أنين صمتك الموجع.

- ومن أدراك.

- إذاً .. هو العكس ..إحساسي بأن هناك من سيسمعني ولو لمرّة واحدة.

التزم الصمت كعادته التي بات يستفزّها كثيراً. ربّما هو يخشى البوح بما يعتلي صدرها من آلام سببها هو، فيخاف على نفسه من الضعف أمامها فيبوح هو أيضاً بحبّ لم تكتب له الأيّام بعد. كسرت الصمت هي حين سألته.

- لماذا لم تعد للأحلام؟ أنسيت من أين بدأت؟
- ألم يعجبك أن تريني ماثلاً أمامك بصورة إنسان وليس طيف من خيال.
- بلى ولكنّك كنت في الأحلام أجمل، كنت أروع، كنت رجلاً، وأحببتك كما كنت هناك.

تفرّس في ملامحها لجرأتها التي ظهرت فجأة وسقط بنظره إلى الأرض يائسٍ من وضع لم يضع نفسه فيه بل القدر من فعل ذلك.

- لماذا؟ ألم أرق لك؟
- لن تفهمني أبداً، أنا ابنة الأحلام ... ثلاث سنوات وأنا أشتهيك في كل حلمٍ، انتظرك كل ليلة كي أرتدي لك أجمل الثياب والتي أشتريها خصيصاً لك، أتعطّر بأروع العطور الفرنسية رائحة وأشهاها، احتضن صورة رسمتها بقلم رصاص مكسور وقت حلمتك ذلك

الحلم وقد كنت على هيئة رجلٍ لا ينس، اكتب لك كل ليلة رسالة حبّ وأخبرك كل ما يجري لي من آلام وأحلام، وأدفن نفسي في تلك الغرفة الباردة ذو الزجاج المكسور لأراك فتدفئ قلبي بدفء قلبك. ثلاث سنوات مرّت وأنا رافضة الواقع وأعيش على أملك، أمل أن تدق بابي وتكون أنت الطارق، كل الليالي كانت لك، وكنت على موعد معك، ولكنّك كنت قاسي القلب كما أنت في الواقع تغيب أشهراً لتأتي ليلة تبعث في قلبي الحنين لترحل وتتركه خالياً على عروشه. بربّك من جعلك سيّداً على قلبي ، من أأتمنك على جسدي، ومن أوصاك بالعبث بأحلامي، قبل أن أراك كنت راضية مقتنعة بحياة لم اخترها، كنت سأحيا كما كتب الله لي فهذه مشيئته ولا اعتراض عليها، هو قدري وسأعتاده شئت أم أبيت بقناعة أو رغماً عني فهذا هو مصيري. إلى أن جئت أنت وشرعت باب الأحلام على مصراعيه، ووقفت بالباب كالمارد الجبّار، وأزلتَ جميع الترسّبات العالقة في ذهني، وأنا بدوري أزلتُ لك الورود جميعها لتبقى لك وحدك. أخبرني الآن من أنت ؟ ومن تكون؟ ولماذا أنت بالذات من اختاره القدر ليلعب معي لعبة بدأها بالأحلام وانتهت في الواقع؟ وبعد كل تلك الأحلام التي جمعتنا في عالم شبيه بحكايات ألف ليلة وليلة، تأتي إلي ببرود لتخبرني بأني كنت لك طيفاً وحلماً

على مدار خمس سنوات، ومع ذلك لم تفعل شيئاً سوى الصمت، والعودة إلى الهجر من جديد، وبعد أشهر عدّة تأتي إلي بقلب بارد كالثلج، قاسي كالصخرة الصمّاء.

ارحل يا عزيزي .. وعد لي بحلمٍ جديد، وحبّ جديد، وذاكرة جديدة، حينها وعداً مني سأستقبلك كما كلّ مرّة وسأفتح للحب جميع الأبواب. لكنّي لن أكون لك سوى في أحلام مبعثرة، فموعد جنازتي الثانية قد حان ولا مناص من الهرب. شكراً لك على ثلاث سنوات من الحب، شكراً لك على ثلاث سنوات من الأحلام، شكراً لك على خيبات صنعها جبنك.

كان ضعيفاً جدّاً، ويائساً إلى درجة الصمت الشديد دون أن يهرع إلى ضمّها، وإخبارها بأن ما باحت به هو الكذب بعينه، هي ما زالت فتاته رآها في أحلامه أميرة فكيف له أن يفرّط بهذه الأميرة.

كلّما مسك يدها أفلتتها منه وانتزعتها بقسوة فاقت كل قساوته، أفلتت يدها من يده التي كانت باردة هذه المرّة لترحل هروباً بدموع اجتمعت في مقلتيها تسألها عن سبب آلامها وربّما لتصبّرها على حبيب بات الهجر من شيمه، ولكن أنّ للدموع أن تصبّرها وهي التي تهوى الانسكاب بغزارة على كل مشهد تراه يشعّ حزناً ويعتصر ألماً.

وغابت منى خلف سور الحديقة كما جاءت وتركته شبحاً دون قلب، ربّما هي من انتزعت قلبه وربّما جاءته وقلبه لم يكن في مكانه، ولكن ما ذنبها إن هي أيضاً مذبوحة الفؤاد.

هل يبادر مشعل إلى احتضان منى وسرقتها بعيداً، أم أنّه يتركها وحيدة لتواجه قدراً كتب عليها ولا فرار منه.

***

أغلقت باب غرفتها خلفها ورمت بجسدها المثقل بهموم الأيام على السرير باكية، بكت كثيراً وكثيراً جدّاً، شدّت قبضتها على الوسادة وشهقت وكأنّها ابتلعت أحزان مدينة فالفراق مؤلم والنسيان أنى له أن يزورها، ومهما كان الفراق اختيارنا فهو موجع ومؤلم كحد السيف حين يعبر أجسادنا.

كم تمنّت أن تتجرأ لتخرج ما في روحها من مشاعر مخزّنة له، لم تكن تعلم أن الجرأة حين تواتيها ستعلن فراقاً أبدياً.

مسحت تلك العبرات وقررت أن تكتب وللمرّة الأخيرة، ستشيّع حبّه لآخر مرّة، ستودّعه هنا بدلاً من وداعه هناك، فهنا ستنطق الكلمة عنها،

ستراه وستشعر بحزنه يكاد يقتلها، أمّا هناك فلن تكون سوى إنسانة مثله بلا مشاعر. ستكتب له الآن، الآن فقط وبعدها ستستسلم وترفع الراية البيضاء لجنازة لائقة لها، سيحظى بها آخر لطالما مقتته. سيفوز ذاك بالمزايدة المعلن عنها. وشيّعت حبّها الذي طالما أمتعها.

أتدري ما الخيبة يا حبيبي أو يا عابر سبيل أحببته، الخيبة هي أن تكسر فوق رأسي زجاجة أبعدتها عنك مراراً كي لا تجرحك.

أتدري ما الخيبة يا عزيزي هي أن أحلم بك كل ليلة، أتمنّاك فيها وأرقص معك ونحن نحتضن بعضنا كفروع الأشجار، وحين تأتي تأتي بقساوة الصخر الأصم.

أتدري ما الخيبة يا فارسي هي أن أكتبك كل ليلة أناديك فيها، أرسمك كلّما حانت لي الفرصة، أوزّع الأدوار وأمنحك دور البطولة، وحين تأتي لا تمنح نفسك سوى دوراً ثانوياً ليس إلا.

الخيبة هي أن يحبّني غيرك أضعاف حبّي لك وحبّك لي فأطعنه آلاف الطعنات لأبقى أسيرة حبّك أنت فقط.

هل تعلم عدد المرّات التي نمت فيها وأنا أخبّئك بين ضلوعي حلماً لا ينتهي؟.

أتدري كم مرّة همست باسمك في ليالي الحنين الكثيرة؟

أتدري كم مرّة وددت لو أصرخ أمام العالم أجمع بحبّك، ولكنك حبّ محرّم يا فارسي، حب في الأحلام بدأ، وعلى الورق نضج، وفي الواقع انتهى.

أتدري كم مرّة صرخت باسمك وأنا مذبوحة بألم الحنين إلى طيف كنت أظنّ بأنه سيبقى في الأحلام ولن يخرج إلى واقعي.

نعم يا سيّدي فمن أنا ليعشقني شخص مثلك، ولكني لم أعرف بأنّك حلمٌ ستبقى ولن تكون واقعاً أبداً، فحلمت بك كثيراً ونسيت أن أمثالك لا تعجبهم سوى الأحلام، فطيف مثلك له القدرة على العبث بأحلامي كما له القدرة ذاتها على العبث بأيّامي.

لن تعجب بي ولكني أنا من كنت ساذجة وصدّقت أحلامي وتبعتها.

أنا امرأة في العقد العشرين من عمّرها، مطلّقة منفية في سجن بارد صنعته بنفسها، يائسة من حياة ليس ملكها، في شعرها بضع خصلات

obeikan.com

من الشيب جرّاء ما تعرّضت له من عذابات نفسيّة. هالات سوداء تحت جفنيها. فمن أنا لتعجب بي وأنت الفارس ذو الشعلة المتّقدة، ذو العينين السوداويين. كظلام ليل دون قمر.

سأظل حبيسة الأحلام يا سيدي، وستكون حبيس الأحلام مثلي لا فرار مني.

كلّما أتيت إلي ليلة سآتي إليك ليلتين، واحدة من أجلي والثانية من أجلك، سأعانقك بدفء أم رأت وليدها للتوّ بعد أن أشيع خبر موته، وأقبّلك كطفلة أعطيتها نقود لتلعب بأرجوحة صغيرة، سأعدو لتعدو خلفي ولن أتوقف عن العدو، سأختفي مثلك فأنا تعلّمت منك لعبة الغميّضة وسأمارسها بإتقان.

حينها ستعود لي في لقاءٍ جديد، في واقع جديد، لكن حينها لن تجدني، لن أكون لك، ستبحث عنّي مجدّداً وستفتّش الحواري بحثاً عن فتاة أضاعها قلبك، ستسأل عنّي كثيراً ولن تملّ حتى تلتقيني مجدّداً. حينها ستراني بصحبته يده في يدي، ستلتقي عسل عيني بليل عينيك. سأخفض ناظري احتراماً لرجل أسير بجواره، أمّا عنك ستطيل النظر إلى أن أختفي عن مرأى ناظريك، ستضرب جبينك بيدك وتلعن نفسك اللعنة الألف بعد المئة لأنك أضعتني.

وإن سألت نفسك جيّدا فابحث عني في آخر مقبرة دفنتني فيها دون أن تبالي بحجم الآلام التي تراكمت علي. أو أبحث عن مقبرة دُفن فيها جسدٌ فقط، لربّما القلب سيبقى على عهد حبّك وفيّاً.

***

كانت الأيّام تقترب سريعاً من موعد ذبحها كنعجة صغيرة وهي شامخة.

هذه المرّة مستسلمة وراضية بما كتبه لها القدر فلا قوّة لديها لتغيير مجراه، ولكنها متشبّثة بأملٍ أنّ هناك قوّة إلهية ستحتضن عجزها وخوفها، سيكون القدر في صالحها، ولن تهان كرامتها كرّة أخرى.

لن تعطي جسدها لأحمد لينهش منه كما يحلو له، هي الآن أقوى مما يظنون، ستدع المركب يسير كما يخطط والدها ولكنها في اللحظة الأخيرة، ستصرخ بملء فيها رافضة هذه المسرحية الهزلة ولن تتوج بطلة فيها، ولن تدع أي أحد يقوم بتتويج أحمد بطلاً بجانبها. فهي إمّا أن تكون لفارس أحلامها وإمّا لن تكون لأحد.

راقبت تلك الساعة اللئيمة والتي تدق في ذات موعد فراقها عند الساعة الثانية عشر ظهراً وعند منتصف الليل في تمام الساعة الثانية عشر،

راقبتها وهي تدق وفي كل دقّة منها قلبها يدقّ ألماً على حال ستصل إليه قريباً، كأنّها تدق على قلبها الهش، في كل ساعة تمضي يخيّل إليها أن عمراً كاملاً من أحلامها يمضي معها.

كلّما حاولت أن تنساها تعاود الساعة ككل مرّة وكأنها تهزأ بأحلامها، تدقّ في موعد فراقها وموعد ذبحها وكأنّها تذكرها بموعدٍ لن تنساه.

باتت تدرك جيداً حقيقة انتهاء الأحلام، فزمن الأحلام ولّى، فموعدها الجديد لن يكون في أحلامها فتلك المواعيد انتهت صلاحيتها، هي على موعد جديد، موعد ليس للحب مكاناً فيه، هي على موعد مع ألم جديد أو رّبما الألم القديم ذاته عاود الظهور مجدّداً، هي على موعد مع جنازة جديدة، قبر يضاف إلى رصيد قبورها، الجلاد والسجان لم يتغيّرا ما دامت الضحيّة لم تتغيّر.

لكنّها لن تدعهم أن يحفروا القبر ذاته من جديد، هذه المرّة ستحاكمهم على جرائمهم كلّها بحق أنوثتها، وبحق آلامها وأحزانها.

ستصرخ أمام الملأ جميعهم ممن حضر خصيصاً ليحضر جنازتها المكرّرة، ستخبرهم بأنّها ضحيّة ولا تريد قيداً في بنصرها يقيّد أحلامها، هي ليست له، هي لم تعد سلعة تباع وتشترى كلّما رفع سعرها قلّ عدد

المتنافسون حولها، فهي من حقّها اليوم الرفض. لن تدع أحداً يساومها على حقّها.

***

وجاء ذلك اليوم.....

***

امتلأت الصالة بالأقارب والأهل والجيران والمعارف،

الكلّ كان في أبهى زينته وخاصة ممن جئن لينافسن العروس في جمالها.

منهم من كان سعيداً لها لدرجة الابتسامة بوجهها كلّما سنحت لهم الفرصة بالنظر إليها ، لأنّها ستعود إلى زوجها السابق كما خرجت من عنده طاهرة نقيّة لم يمسسها بشر، ومنهم من ينظر إليها نظرة حقد وحسد بأنّ لها زوجاً كأحمد لا يعرف العيش ولا طعم العيش دونها، هكذا يظنون يا لسذاجتهم، وهي تعتقد أن زوج جوارب تلبسه أفضل من هذا الزوج.

obeikan.com

ارتفع صوت الأغاني يملأ أرجاء القاعة، والكل يتراقص في فرحٍ وسرور على إيقاع تلك الأغاني. ما عداها تنظر للجميع ولا تدري لماذا الكل سعيد ما عداها ، ربّما كانت تنتظره ، قلبها يخبرها بأنه بات قريباً منها، وسيكون لها موعدٍ معه، ولكن من أدراها ربّما يعاود الظهور في تلك الأحلام مجدّداً.

ارتفع مهرها هذه المرّة أضعافاً مضاعفة عن المرّة السابقة، كي يضمن والدها ألا تعود إليه ثانية، ولا يهمّه سعادتها أو تعاستها، ما يهمّه هو النقود التي باتت تدفئ خزينته ومشاريعه القادمة.

أمّا أحمد فكان الوضع مختلف ، دفع تلك الأموال وهو سعيد ولم يبال، لأنه سيحظى بها للمرّة الثانية ويستطيع إهانتها كما يحلو له، فوالدها هذه المرّة سيذبحها كالشاة إن هي قررت الانفصال وستبلع الموس على الحدّين، راضية بإهانات وبواقع سيفرض عنوة عليها.

وحدها كانت تنظر إلى ساعة الحائط والتي جلست قبالتها تسخر منها ومن أيّام ستأتي إليها، لماذا على كل الجدران تتوضّع ساعات شتّى وكأنهم يهزؤوا بجراحها ويعرفون بأنها تمقت الساعات مقتاً شديداً، يذكّرونها دائماً بموعد مع الجراح لا ينتهي. لم تغيّر من نظراتها لها كل دقيقة تمرّ تتمنّى أن يغيّر قدرها قبل أن يغيّر خاتم الزواج مكانه.

وحدها كانت تنظر إلى مقعد عريسها الفارغ بجانبها وتتخيّل فارسها المشعل هو من جالساً بجوارها، ماذا يفعل الآن هل سيأتي في لحظة النهاية ليحملها كما الأفلام على جواد أبيض وبيده سيف ليقاتل كل من يقترب منها، هل سيأتي ليحميها من كوابيس ستسيطر عليها، هل عادت إليه في الأحلام. أمّا عنها فلم تره ولو في حلمٍ قصير المدى.

تمنّت لو أهدته من قبل ساعة كتلك الساعة الجدارية كي يضعها أينما ذهب لعلّه لا ينسى أن مواعيده معها لا تنتهي بعدد الأحلام وإنّما تستمر وإن انتهت الأحلام.

كم اشتاقت لعينيه الجريئتين الملتمعتين كسواد الليل ، ها هي باتت تخون أحمد في اشتياقها لذلك الفارس المغيّب قبل وضع ذلك الخاتم اللعين في بنصرها، فماذا لو تمّ وضعه وانتهى الأمر ستخونه في اليوم آلاف المرّات لعلّها تشفي غليلها منه، سيحتلّ جسدها عنوة شاءت أم أبت ولكنّ قلبها لم ولن يكون له، سيكون للأجدر منه فهو من يستحقّه.

***

توقفت الأغاني فجأة لتعلن دخول عريسها الميمون، إلى قاعة الزفاف، أخذوها من يديّها مرغمة لتستقبل سيّدها وولي أمرها الجديد، كما فعلوا

سابقاً فهم يكرّرون الأمر عينه، وكالشاة التي تساق إلى ذبحها استقبلته بحزن يعتصر قلبها، وبصمت بالغ الأسى أيضاً. رفع لها طرحتها الناصعة البيضاء ليقبّلها على جبينها وابتسامة نصر تعلو شفتيه، مسحت مكان قبلته متقززة منه ولم تتمكّن من التملّص منه، فراحت يدها لا يحقّ له لمسها فهي لن ترضى أن تكون معه، ولكنّه كان لا مبالياً بحزنها كعادته حيث تأبّط ذراعها عنوة وسارا باتجاه مقعديهما الذهبيين.

على ذاك المقعدين المخصصين لهما جلسا سويّة، في هذه المرّة كان ينظر إليها بشغف ربّما هو مبالغ فيه، وربّما هو حبٍ جديد فعلاً. لكل قطعة من جسدها عيناه امتدّت، وهي نظراتها لم تتعدَّ راحة يدها والتي لمسها قبل قليل أو الأصدق أمسك بها وتحسسها بحنانٍ أو بشهوة، كانت تريد الصراخ في وجهه فليكفّ عن نظراته الوقحة باتجاهها ، ليكفّ عن نظراته المتفرّسة بحقّها، لكنها صمتت وصمتت وصمتت، وحده الصمت كان صديقها وعونها في أزمات لحقت وستلحق بها.

حضر ذلك الشيخ الجليل بردائه الأبيض المتواضع، كان وجهه يشعّ نوراً، وبيده دفتر كبير أضعاف دفترها الذي كانت تكتم حبّها فيه. جاء هذه الليلة بالذات ليكون الشاهد الأوّل على ذبحها، أو الأجدر القول

لذبحها بينما البقية يساعدوه على إتمام مهمّته بنجاح ودون أن يكللها فشل.

بدأ يتلو آيات النكاح بصوته الدافئ وكأنّ الله وحاشا لله أن يكون هو من أمره بهذه المذبحة، كادت أن تصرخ في وجهه ووجه البقيّة أن يكفّوا عن نفاقهم هذا وليرأفوا بحالها ولينتهوا من مهزلة مؤلمة بحقّها. ولكن مامن مسمع لنداءات قلبها.

تجاوز قلبها دقّات تلك السرعة الهرمة بنبضاته المتسرّعة والعنيفة، ستصرخ حين يسألها عن رأيها بـ (لا) ستخبره بكل شيء، فهو سيتفهّم أنها مجبرة وسيوقف مهمّته ويعلنه زواجاً باطلاً، ستبكي.. ستتوسّل ليحرّرها من قيدٍ سيتوضّع حول عنقها عنوة، لن يجبرها أحد هذه المرّة فهي قويّة وتستطيع الصراخ أمام تلك الحشود الملبّية لنداء ذبحها.

***

ومن بين تلك الجموع المحتشدة هو فقط من أحسّ بدمعها قبل أن تسكبها على الأرض، وحده من أحسّ بألم نبع من قلبها وارتسم على ملامحها. استمع إلى صراخها المؤلم المنبعث من صمتها القاتل، سمع وهو في آخر القاعة دقّات قلبها وهي تنطق باسمه، وأخيراً لمح دمعتها التي

حاولت جاهدة إخفاءها فلم تفلح، لمح دمعتها وهي مقيمة في مقلتيها الصغيرتين، رأى اللآلئ في عسل عينيها تلمعان كالشمس في مشرقها.

هو الأجدر بها من غيره، لن يسرقوها منه مستشهدين ببعض من الآيات القرآنية فالله لم يأمرهم بذلك، لن يدعهم يتممون ما بدؤوا به.

كيف يطاوعه قلبه على سرقة صغيرته منه، معنى ذلك أنه لن يرها ولن يستمع لصمتها، لن يرى العسل في عينيها، ولن تأتهِ في الأحلام، لن تكون له لا حلماً عابراً ولا واقعاً.

وحين سألها ذلك الشيخ الذي جاء فقط لأمر كهذا عن رأيها صمتت وهي تحضّر في ذهنها إجابات عديدة متناقضة والكل من في القاعة ينتظر إجابتها بالقبول، ما عداها كانت محتارة بين إجابات عدّة، وشقّ الصمت هو ليريحها من عبئ الإجابة حين جاءها ليخبر الشيخ بأنّها رافضة لمأتم كهذا.

وجذبها من راحة يدها الصغيرة بحنان أبوي وترك الكلّ في ذهول غير متوقّع بمن فيهم هي والتي كانت في أشدّ سعادتها كما في أشدّ حزنها.

وفي تلك اللحظات ولأوّل مرّة تترك العنان لدمعتها بالإنسكاب أمامها دون أن يلفّها الكبرياء، ابتسامة صغيرة ارتسمت على شفتاها الورديتين معلنة بفرح قبولها لحبّ جديد طرق بابها وها هي فتحته دون أن تسأل عن هويّة الطارق.

ساد الهرج والمرج أرجاء القاعة والكل يتساءل من هذا الذي يحق له فعل هذا واقتحام الفرح ليوقفه بأسباب لا منطقية.

جاءه والدها مسرعاً يستفسر عن القادم الجديد وبعد أن هدّأ من روع أحمد ليستطلع ما يحدث من أمور في هذه القاعة الضخمة، كان يستشيط غضباً هو وأحمد من تمثيلية هزيلة حصلت أمامهم للتو. ها قد عرف أحمد الآن من هو الحبيب المستقبلي لمنى.

جذبه من ذراعه بقوّة ليفهم من هو وكيف يجرؤ على فعل كهذا أمام الجميع ويوقف فرح ابنته بهذا الشكل. ولكن سرعان ما عرف مشعل ماهيّة تفكيره والتي تدور حول أكياس من المال، فوضعه المالي يمثّل أضعافاً مضاعفة عن وضع أحمد.

التمعت عينا والدها حين أخبره بمهرها والذي فاق مهرها من أحمد أضعافاً، كيف لا يقبل إذاً وهو الذي جعل المال إلهاً له يعبد.

ووافق دون تردد على عقد قرانهم ما دام الشيخ ما زال واقفاً منتظراً أن يعرف من سيكون العريس ليستكمل عمله.

انفجر أحمد غاضباً وخرج من القاعة وهو يتوعّد ويهدد، خرج هو وعائلته وأقاربه مسرعين. كيف لا وهي كانت قاب قوسين أو أدنى منه، وكادت في طرفة عين أن تصبح زوجة له.

وبدأ الحفل مجدّداً بعريس مختلف، بحبيب جديد يطلّ على ساحتها بعشق ليس له مثيل.

أمسك يدها وبابتسامة تشعّ نوراً منه كاد أن يذيب بها قلبها.

انتهى عقد القران وها هو كان رجلاً بحق، أحال أحلامها واقعاً أشهى وأجمل.

واقعاً اختاره هو حين قفز إلى أحلامها عنوة وأحال صحراءها القاحلة رابية خضراء.

أمسكا بدفاتر بعضهم ليقرأا على ضوء المرايا المهشّمة ما كتبه كل منهما عن الآخر.

وابتسامة تعلو الشفاه من كلا الطرفين.

تمت بعونه تعالى

2017/7/29

من رحم الألم يولد الإبداع

obeikan.com